راضي حبيب

الأسفار الأربعة العرفانية

محاضرات

الشيخ/ أحمد الماحوزي



الأسفار الأربعة العرفانية

محاضرات

الشيخ/ أحمد الماحوزي

راضي حبيب

دار أهلِ الذكر


شبكة الفكر
alfeker.net

إهداء

أهـدي هـذا العمـل المتواضـع الـى سـيدي ومـولاي حـامي الشـريعـة مـن الغـدر والخديعـة ونـاصر المحمديـة السمحاء على الجاهلية العمياء إلى سيدي أبي طالب أبي العلوية البيضاء .

راضي حبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

أول بدأ الكلام الصلاة على خير الانام محمد وآله الطيبين الطاهرين أجمعين.

والحمد لله المتفرد بالخلق والتدبير، الواحد فى الحكم والتقدير، المتنزه بقول النبي وآله عن كل قول وقيل، الظاهر ببطونه والباطن بظهوره، هو هكذا وليس غيره هكذا، صرف الوجود وكل الاشياء وغير الاشياء، قريب ليس بقريب، وبعيد ليس ببعيد، غامض ليس بغامض، تاهت العقول ببحر الحيرة، وجفت الاقلام، وعجزت الالسن، وضاقت الارض علينا بما رحبت.

نعت المهيمن بالاطلاق تقييد وكل ماقيل فيه فهو تحديد

فمن تمنىٰ طلب الوصول الى الله تعالىٰ فحقيق عليه أن يأتى الامر من بابه، وأن يتوصل إليه بوجود أسبابه، وهو أهل بيت العصمة صلوات الله عليهم أجمعين، اذ السلوك الى ملك الملوك يحتاج الى أصول وقواعد وشروط وضوابط، مذكورة

ومنمّقة في كتب أرباب أهل الفن من العرفاء الشامخين ، وأُس هذه الشروط المتابعة المطبقة للنبي الخاتم وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة والسلام .

وبعد : ففي هذه السنة من شهر رمضان المبارك شهر الرحمة والغفران شهر البركة والرضوان إستمعنا الى جملة من الدروس في العرفان النظري ألقاها علينا أستاذنا الجليل الشيخ أحمد الماحوزي حفظه الله ، وكان من جملتها بيان وتوضيح وشرح الاسفار الاربعة للسلاك الى الحق تعالى ، فنالت إعجابي فقمت بتدوين وإعداد الدروس المخصوصة بالاسفار المزبورة مع إضافة أقوال جملة من العلماء والعرفاء من أرباب هذا الفن ، مع ذكر بعض التوضيحات والتعليقات النافعة في المقام إن شاء الله .

والحمد لله سرمداً على نعمته العظمى وصلى الله على سيدنا الاكبر الاعظم الاكرم محمد وآله الطيبين الطاهرين .

راضي حبيب

٣٠ / شهر رمضان المبارك / ١٤٢٠

الكويت

بيان الاسفار الاربعة

معنى السفر والسلوك

السفر هو الانكشاف والجلاء ، فسفرة المرأة عن وجهها أي كشفت عنه ، ومنه قوله تعالى ﴿ والصبح اذا أسفر ﴾ [1] أي إذا انجلى وانكشف ، ومنه السفر الذي هو قطع المسافة اذ الناس به ينكشفون وينجلون عن أماكنهم الى أماكن أخرى .

والسَّفرْ : الكتابة ، والسَفَرة : الكتبة ، تسمى بذلك لان الكتابة تسفر وتكشف عما يحتاج اليه من الشيء المكتوب .

وعند العرفاء هو سير القلب في توجهه الى الحق ، وهو قلباً وبدنا ، معنى وحساً ، فللعقل سفر وهو الانتقال من المقدمات الى النتائج ، وللقلب ايضا سفر الى الحق تعالى .

والسلوك من سَلَكَ ، وهو نفوذ شيء بشيء ، فسلكت الشيء أي انفذته ، ومنه قوله تعالى ﴿ كذلك سلكناه في

---

(١) المدثر : ٣٤.

قلوب المجرمين ﴾[١] ، وعند العرفاء انتقال من منزل عبادة الى منزل عبادة بالمعنى ، وانتقال بالصورة من عمل مشروع على طريق القربة من الله الى عمل مشروع بطريق القربة الى الله بفعل وترك ، وكذا انتقال بالعلم من مقام الى مقام ومن اسم الهي الى اسم ومن تجل الى تجلى ومن نفس الى نفس والمنتقل هو السالك[٢] .

أقسام السلاك

قسم ابن عربي السلاك الى أربعة أقسام بحسب رتبتهم في العلم بالله : سالك بنفسه ، وسالك بربه ، وسالك بالمجموع ، وسالك لاسالك .

أما الاول : فهو التقرب الى الله ابتداءً ، ويكون التقرب بالفرائض والنوافل والخيرات الموصلة الى محبة الله تعالى ، كما ورد في الحديث الشريف « مازال عبدي يتقرب اليَّ بالنوافل » فهو يجهد فيما كلفه الحق ويبذل استطاعته وقوته فيما أمره به ربه .

وأما الثاني : وهو الذي أحبه الله فكانت عينه ثابتة في العدم والحق سمعه وبصره ، وهو المسمى في كلماتهم بمقام قرب النوافل ، وهو المشار اليه في تكلمة الحديث السابق

---

(١) الشعراء : ٢٠٥.

(٢) الفتوحات المكية ج ٢/٣٨٥.

«فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها» .

وأما الثالث : فهو بعد أن ذاق كون الحق سمعه وبصره ويده التي يبطش بها .

وأما الرابع : فيقول فيه ابن عربي : فهو أنه رأى نفسه لم تستقل بالسلوك مالم يكن الحق صفة لها ، ولاتستقل الصفة بالسلوك مالم تكن نفس المكلف موجودة ويكون المحل لها، فيبدو أنه سالك بالمجموع فاذا تبين له ان بالمجموع ظهر السلوك بَانَ له أن المظهر لاوجود له عيناً ، وان الظاهر تقيد بحكم استعداد المظهر ، ورأي الحق يقول : ومارميت اذ رميت ولكن الله رمي ، وكذالك لو قال : «وما رمى» لصح كما صح في الطرف الاول فمن وقف على هذا العلم من نفسه علم أنه سالك لاسالك .

وسيأتي تفصيل كل ذلك عند ذكر اقسام الفناء فانتظر .

والاسفار عندهم أربعة وهي كالاتي :

الاول : من الخلق الى الحق

وهو سفر وسير الى الله من منازل النفس للوصول الى الافق المبين الذي هو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات

الاسمائية، وبتعبير آخر سفر من عالم المادة والطبيعة ـ وهو عالم الكثرات ـ الى عالم الوحدة، والسالك في هذا السفر محتجب عن الوحدة لانشغاله بالكثرة فالوحدة محجوبة والحاجب هو الكثرة، فهو محتجب بالخلق عن الحق وملتفت الى حظوظ النفس الحيوانية وغافل عن الحقوق الربانية (١).

وحركة السالك والمسافر في هذا السفر خروج من القوة الى الفعل فكل جزء لاحق لايتحقق الا بعد انصرام وتقضي الجزء السابق، فهو ليس فقط محتجباً عن الوحدة بالكثرات الحاصلة بالفعل بل محتجباً ايضا بالكثرات التي يغيب بعضها عن بعض.

وبداية هذا السفر عالم المادة ومنتهاه الحق تعالى الذي هو غاية العارفين والعاشقين، ففيه يرفع المسافر حجب الكثرة عن وجه الوحدة.

ويقطع السالك فيه الى ان يصل الى غايته أربع مراحل ويترقى أربعة مقامات.

---

(١) فهو مشغول بعالم التكاثر المشار إليه في قوله تعالى ﴿ألهاكم التكاثر﴾ فهو انشغال المخلوق بمخلوق آخر والماهية بماهية آخرى والانصياع التام لها ﴿قل اتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولانفعا والله هو السميع العليم﴾ «راضي».

المرحلة الاولى : التَّجْلِية .

وهي أن يجلي السالك وينقي ظاهره باستعمال ماورد في الشريعة الخاتمة، فبعد ان يفيق المسافر العارف من نوم الغفلة والسبات أول مايبدأ به هو أقلمة ومطابقة ظواهر اعماله وحركاته وسكناته مع ماجاء به الشرع المقدس، وتهذيب ظاهره بمايتلاءم مع الحدود التي حدها الله ورسوله واهل بيته عليهم أفضل الصلاة والسلام في الكتاب والسنة، ومع مادوّنه الفقهاء والمجتهدين في رسائلهم الفقهية.

ومع عدم استعمال ماجاءت به النواميس الالهية لتهذيب الظاهر فان حركة السالك نحو الحق تعالى ستتوقف وينقطع سفره ولن يستطع إكمال حركته وسفره الى محطات وأسفار أخرى.

وهذه هي المحطة الاولى التي ينطلق فيها السالك الى الله ويبدأ بها حركته نحو الغاية، واذا تجاوزها بسلام فستكسبه ملكات نفسانية تتناسب مع حجم الاعمال التي كان يؤديها ويتعبد بها.

فالتطبع بالاعمال الشرعية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وبقية الواجبات والمداومة على المستحبات والتشبع بها والابتعاد عن المحرمات والمكروهات وتجنبها تمنح

الانسان ملكات وهيآت نورانية تتناسب مع فعل الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات والابتعاد عن الشبهات .

فلكل عمل عبادي ـ كما حقق في محله ـ هيئة نورانية تضفي لحقيقة الانسان نورا جديدا مكتسبا فيشتد وجوده ويزاد قربا من الاله المعبود .

اذ الصلاة مثلا علاوة على أنها تعطي الانسان خشوعا وخضوعا وذلة لله تعالى لها هيئة نوارنية تكسب الانسان بهاءا ونورا يشعر به كل من ذاق طعم حلاوة الصلاة والمناجات مع الله .

وكذلك بقية العبادات والاعمال الشرعية أول مايبدأ بها الانسان تكون علاقته مع هيئاتها الواقعية النوارنية علاقة قابلة للانفكاك فاذا استمر عليها اشتدت تلك العلاقة وتقوّت حتى تصبح ملكة عنده صعبة الزوال فاذا أدمن عليها اتحدت تلك الهيئة مع كيان الانسان بحيث اصبحت تشكل جزءا لاينفك عن الانسان ، فيترقى بعد الاتحاد من مرتبة الذين امنوا وعملوا الصالحات الى مرتبة الصالحين ، اذ قد يكون العمل صالحا ولاتكون الذات صالحة ، اما اذا اتحد الانسان مع هيئات الاعمال النوارنية فستصبح ذاته صالحة ، ولذا ورد في الذكر الحكيم والقران القويم ﴿ الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ﴾ و ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ فكون العمل صالحاً لا يقتضي كون الذات صالحة بخلاف ماإذا كانت الذات صالحة فلا يصدر عنها الا الصلاح ، وهذا معنى العصمة فتدبر .

ومثال ذلك القطعة من الفحم أول ماتوضع في النار تكتسب حرارة النار وبعد ذلك تشتد فتصبح نارا ثم في الاخير تصبح مصدرا للنار ، ولذلك وقود النار يوم القيامة ليس شيئا وراء الانسان ومايعبد من دون الله ﴿ انتم وما تعبدون حصب جهنم ﴾ وقوله ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾.

فاذا تخطى السالك هذه المحطة بأمان واكتسب الصفات النفسانية العالية تشكلت له ارضية الانطلاق للمحطة الثانية وبدأ حركته نحوها.

المرحلة الثانية : التَّخْلية .

وهي ان يتخلىٰ السالك عن رذائل الاخلاق ومساوىء العادات والصفات الذميمة البغيضة التي تثقل الانسان وتجره الى عالم المادة والطبيعة وتوّلد لديه ـ مع التطبّع بها ـ هيئات ظلمانية سوداء قاتمة تمنعه من التطلع والنظر الى عالم الملكوت والجبروت واللاهوت وتحجبه عن معرفة الاسرار الالهية ، ولذا جاء في الذكر الحكيم ﴿ بل ران على قلوبهم

ماكانوا يكسبون ﴾ وورد عن الرسول الاكرم ﷺ « لولا أن الشياطين تحوم على قلوب بني آدم لرأوا المكلوت » .

وتخطي هذه المحطة لايكون الا بترك الصفات والشرور اللقلقية والقبقبية والذبذبية المشار اليها في قوله ﷺ : « من وقي شر لقلقه وقبقبه وذبذبه ، فقد وقِيَ الشر كله » ، واللقلق هي اللسان والقبقب هو البطن والذبذب هو الفرج .

ولذا قدم في اية التطهير اذهاب الرجس على التطهير فلكي يتصف الانسان بالطهارة لابد ان يتخلى عن القذارة ، فالتحلية ـ وهي المرحلة الثالثة ـ بعد التخلية ، فلكى يتحلى الانسان بالصفات الحميدة لابد من التخلى اولا عن الصفات والاخلاق الذميمة وشرور العادات .

المرحلة الثالثة : التَّحْلية .

وهي ان يتخلع السالك بخلع الاسماء والصفات الالهية ويتخلق بأخلاق الله عز وجل استجابة لقوله ﷺ « تخلقوا بأخلاق الله ».

فغاية المحطة الاولى تهذيب الظاهر بما يتلاءم مع الشرع والمحافظة على الحدود الشرعية والالهية ، والمتكفل لبيان هذه الحدود الفقه والرسائل العلمية ، وغاية المحطة الثانية التخلى والابتعاد عن الصفات الذميمة والاخلاق السيئة والعادات القبيحة ، والمتكفل لبيهانها علم الاخلاق ،

وغاية المحطة الثالثة هي التحلي بالفضائل والتخلق بالصفات الالهية بحيث يحاكي الاله في حركاته وسكناته فيكون مرآتا تنطبع فيها الاخلاق الالهية والفضائل الربانية .

بعد ذلك يبدأ السالك الحركة والتوجه الى المحطة الرابعة .

المرحلة الرابعة : الفناء .

ولها ثلاث مراتب :

الاولى : الفناء في مقام الافعال ، ويسمى بالمَحْو .

بمعنى ان العارف يصل الى مرحلة لايرى في الوجود فعلا إلا وهو فانٍ في فعل الله تعالى ، فالفعل اولا وبالذات لله تعالى وثانيا وبالعرض فعل العبد ، بل لايرى في صقع الوجود مؤثر وموجد وفاعل إلا الله عز وجل ، وهذا مايعبر عنه بالتوحيد الافعالي [(١)] .

فالعارف اذا وصل الى هذه المرتبة يعاين الحقائق القرانية كقوله تعالى ﴿ وما رميت اذا رميت ولكن الله رمى ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلم تقتولهم ولكن الله قتلهم ﴾ وقوله ﴿ الله خالق

---

(١) وهناك توحيد فعلي غير المبحوث عنه هنا ، ومعناه ان أول ماصدر عن الله امر واحد لامتعدد ، ويعبر عنه بقاعدة الواحد وان الواحد البسيط لايصدر عنه الا واحد ، وهذه القاعدة لاعلاقة لها بالمقام اذ هي من المسائل الفلسفية لا العرفانية .

كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ وقوله ﴿ ذلكم الله ربكم لااله الا هو خالق كل شيء فاعبده ﴾ ، فيشاهد تلك الحقائق في مواطنها فتنكشف له رأي العين ، فلا يكون بينه وبينها حجاب من نور او ظلمة فيحيط بها او ببعضها على نحو العلم الحضوري لا الحصولي [١] .

الثانية : الفناء في مقام الصفات ، ويسمى بالطَمْس .

وهو ذهاب سائر الصفات البشرية في صفات أنوار الربوبية .

بمعنى ان العارف لايرى لنفسه صفة حسن أو كمال او جمال الا وهي اولا واخرا لله عز وجل ، فلا ينسب لنفسه ما ليس له ، واذا وُجد في مُمْكنٍ صفة حسن او كمال او جمال واستحق عليها الثناء والمدح ، فان الذي يستحق ذلك أولا واخرا وبالذات هو البارىء عز وجل ، لان صفات الكمال والحسن كلها لله عز وجل ، وان القوة له ، والعزة له ،

(١) وما انكشف للعارف توصلت الى اثباته الحكمة المتعالية لكن على نحو العلم الحصولي لا الحضوري ، فقد استطاع صدر الفلاسفة والمتألهين من اقامة البرهان والدليل على انه « لامؤثر في الوجود بمعنى الكملة الا الله عز وجل » ، وفرق كبير بين العلم الحضوري والحصولي ، وبون شاسع بين من يذوق الحلاوة ومن يعلم بها ، ومنه سميت هذه المعارف بالذوقيات ، فالعرفاء الحقيقيون يذوقون حقيقة الاشياء ، وليس الذوق هنا بمعنى التَّذوّق العرفي كما قد يتراىٰ للكثير .

والشفاعة له ، والثناء له ، والحمد له ، فكل من عند الله والحمد لله رب العالمين .

قال العلامة الطباطبائي : قوله تعالى (الحمد لله) الحمد على ما قيل هو الثناء على الجميل الاختياري والمدح أعم منه ، يقال : حمدتُ فلانا أو مدحته لكرمه ، ويقال : مدحت اللؤلؤ على صفائه ، ولا يقال : حمدته على صفائه ، واللام فيه للجنس أو الاستغراق والمآل ههنا واحد .

قال : وذلك أن الله سبحانه يقول ﴿ ذلكم ربكم خالق كل شيء ﴾ ، فافاد أن كل ماهو شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب اليه فالحسن يدور مدار الخلق وبالعكس ، فلا خلق إلا وهو حسن جميل بإحسانه ولا حسن إلا هو مخلوق له منسوب اليه ، وقد قال تعالى ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ وقال ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ فأنبا انه لم يخلق ماخلق بقهر قاهر ولا يفعل ما فعل بإجبار من مجبر بل خلقه عن علم واختيار فما من شيء إلا وهو فعل جميل اختياري له فهذا من جهة الفعل ، واما من جهة الاسم فقد قال تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ ، فهو جميل في أسمائه وجميل في أفعاله ، وكل جميل منه .

قال : فقد بان أنه تعالى محمود على جميل أسمائه

ومحمود على جميل أفعاله ، وأنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان لله سبحانه حقيقة لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه ، فلله سبحانه جنس الحمد وله سبحانه كل الحمد [١] ، انتهى .

فالفناء في مقام الصفات بمعنى ان ما من صفة حسن او كمال إلا ويراها العارف أنها صفة لله عز وجل لاغير ، فهو العالم والقادر والجميل ، اما العبد فسواء كان هو السالك والعارف أم غيره فلا يملك حظ من تلك الصفات ، نعم بنظرة ساذجة يمكن أن يقال للعبد انه ذو علم وذو قدرة وذو جمال ، وفرق بين ذلك وبين من هو علم كله وقدرة كله وحياة كله .

الثالث : الفناء في مقام الذات ، ويسمى بالمَحْق .

وهو فناء العبد في ذا الحق تعالى ، فالواصل الى هذا المقام لايرى لنفسه عين ولا أثر ، وكذا لايرى للاشياء ذات الظهور عين ولا أثر ، وهو منتهى السفر الاول وبداية الثاني ، وتكون الكثرة محتجبة بالوحدة ، فلا يرى السالك فيه الا الله عز وجل ، وهو مايعبر عنه بوحدة الشهود .

قال العارف الكاشاني : المحق فناء وجود العبد في ذات الحق ، كما أن المحو فناء أفعاله في فعل الحق ، والطمس

---

(١) تفسير الميزان : ج ٢٢/١ .

فناء صفاته في صفات الحق ، فالاول لايرى في الوجود فعلا للشيء إلا للحق ، والثاني لايرى لشيء صفة إلا للحق ، والثالث لايرى وجودا إلا للحق [١] .

وفي كلام جميل للعلامة محمد حسين الطهراني قدس سره قال :

« وتنكشف للسالك ـ نتيجة للمراقبة التامة والاهتمام الشديد بها وعلى أثر التوجه الى النفس وبالتدريج ـ عوالم أربعة هي كالتالي :

العالم الاول : توحيد الافعال ، أي ادراك السالك في المرحلة الاولى أن كل ماتراه العين ويلفظه اللسان وتسمعه الاذن وتقوم به اليد والرجل وسائر الاعضاء والجوارح ، كل ذلك يستند الى النفس ، وهي مصدر جميع الافعال في الخارج ، ثم يدرك أن نفسه قائمة بذات الحق ، وأنها قبس من فيوضات الله ورحمته ، وبالتالي تعود جميع الافعال في العالم الخارجي الى ذاته المقدسة .

العالم الثاني : توحيد الصفات ، ويكون بعد العالم الاول ، وفي هذا العالم لايرى السالك من نفسه سمعا أو بصرا ، وأن حقيقته سمعه وبصره من الله تعالى ، وكذا كل مايُرى في الموجودات الخارجية ـ من الصفات كالعلم والقدرة والحياة ـ

---

(١) اصطلاحات الصوفية : ٥٥ .

يستند إليه تعالى .

العالم الثالث : التوحيد في الاسماء ، ويأتي بعد العالم الثاني ، وهو أن يدرك السالك قيام جميع الصفات بالذات الالهية ، كأن يرى ان العالم والقادر والحي هو الله المتعال ، فيدرك ان علمه وقدرته وسمعه وبصره هو علم الله وقدرته وسمعه وبصره وأن الحي والقادر والعالم والسميع والبصير - في كل العوالم - هو احد فقط ، وهو الله جل جلاله ، وكل موجود من المجودات يحكي - بقدر سعة وجوده - عن ذلك العالم والقادر والسميع والبصير والحي ويدل عليه .

العالم الرابع : التوحيد في الذات ، وهو أعلى من العالم الثالث ، وينكشف للسالك بواسطة التجليات الذاتية ، فيدرك فيه أن تلك الذات التي تستند إليها جميع الافعال والصفات والاسماء هي ذات واحدة ، وأنها حقيقة واحدة ، تقوم بها جميع الحقائق ، فلا يعود للسالك توجه الى الاسم والصفة بل يكون مشهوده هو الذات فحسب .

وهذا حين يتخطى السالك وجوده الخاص متناسيا ذاته في ظل الفناء في الذات الالهية المقدسة ، حينها يحصل التجلي الذاتي ، والمسمى لضيق التعبير أحيانا بمقام الذات او حقيقة الذات ، لان كل ما يكتب أو يقال عبارة عن أسماء ، والذات الالهية المقدسة أرفع مقاما من ذلك ، فلا يمكن لاى

إسم أن يطالها أو يدرك مقامها بل هي أعلى من هذا العجز ، لان العجز هو في عين السلب والنفي اثبات حدي ، والحق تعالى أعلى من الحد ، فإذا دخل السالك الى هذا المنزل متناسيا اسمه وذاته عندها لن يعرف نفسه أو احد آخر غير الله ، بل يرى الله في ذاته فحسب .

فالسالك يفقد في كل واحدة من هذه العوالم الاربعة مقدارا من آثار وجوده الخاص ، حتى يفقد تمام وجوده وإنيته .

ففي العالم الاول الذي يصل فيه الى مقام الفناء في الفعل يفهم أن الفعل لايصدر منه ، بل من الله ، وهنا يفقد تمام آثاره الفعلية .

وفي العالم الثاني عندما يصل إلى التجلي الصفاتي يفهم أن العلم والقدرة وسائر الصفات تختص وتنحصر بذات الحق سبحانه وتعالى ، وهنا يفقد صفاته ويضيعها فلا يجدها بعد ذلك في ذاته .

وفي العالم الثالث : عندما يحصل التجلي الاسمائي يدرك أن العالم والقادر هو الله جل جلاله ، وهناتضيع اسماءه فلا يجدها بعد ذلك فيه .

وفي العالم الرابع الذي هو التجلي الذاتي يضيع وجوده ويفقد ذاته فلا يجدها بعد ذلك أبدا ، فلا ذات سوى ذات الله

المقدسة .

هذه المرحلة من الشهود ـ أي التجلي الذاتي ـ يعبر عنها العارفون بالعنقاء ، لان العنقاء موجود لايمكن اصطياده ، وهذه الذات البحتة والوجود الصرف يعبر عنه بعالم العمى والكنز المخفي وغيب الغيوب والذات التي لا اسم لها ولا رسم .

والمعروف أن المكان الذي فيه عش العنقاء لاأثر له أصلا ، فكيف يمكن صيدها ؟ فلا يمكن ذلك إلا بلطف الرحمٰن الهادي الذي يقود التائهين في وادي المحبة وعاشقي جماله السرمدي الى وادي التوحيد والفناء [١] ، انتهى كلامه رفع مقامه .

وقال في موضع آخر : والمقصود من التجلي للصفات هو أن يشاهد السالك في نفسه صفة الله ، فيرى علمه أو قدرته أو حياته حياة وعلم وقدرة الله ، كأن يدرك أن الشيء الذي يسمعه قد سمعه الله وهو السميع ، او يدرك الشيء الذي يراه قد رآه الله وهو البصير ، أو أن العلم في العالم منحصر بالله ، وأن علم كل موجود مستند الى علمه ، بل هو نفس علمه .

والمراد من التجلي للأسماء هو أن يشاهد في نفسه

---

(١) رسالة لب اللباب : ١٥٨ .

صفات الله المستندة الى ذاته ، مثل القائم العالم السميع البصير الحي القدير وأمثالها ، كما يرى ان العليم في العالم واحد وهو الله تعالى ، ولا يرى نفسه عليما في قبال الله ، بل كونه عليما هو عين كون الله عليما ، وأن يدرك أن الحي واحد وهو الله ، وانه ليس حيا ، بل الحي هو الله فقط وأخيرا أن يدرك أن « ليس القدير والعليم والحي إلا هو تعالى وتقدّس » .

ثم أنه يمكن أن يتحقق التجلي للاسماء في خصوص بعض الاسماء الالهية ، ولا يلزم من تجل واحد أو إثنين من هذه الاسماء في السالك ان تتجلى البقية فيه .

أما التجلي الذاتي فهو أن تتجلى الذات المقدسة للباري تعالى في السالك ، وهذا إنما يحصل بعد ان يعبر السالك من الاسم والرسم ، وبعبارة أخرى حينما يكون قد فقد نفسه كليا ، فلا يجد أثرا لذاته في عالم الوجود ، ويودع الذات والذاتية دفعة واحدة في غياهب النسيان و « ليس هناك إلا الله » ، فلا يتصور بعد ذلك ضلال وضياع لمثل هذا الانسان لانه مادام هناك ذرة من الوجود في السالك ، فان طمع الشيطان لن ينقطع عنه ، ومازال يأمل في إضلاله وغوايته ، ولكن عندما يطوي السالك ـ بحول الله وقوته ـ بساط الذاتية والانانية ، ويدخل الى عالم اللاهوت ، ويرد الى حرم الله

ويـــرتدي لبـاس الاحــرام ، ويشــرف عــلى التــجليات الذاتــية الربانية ، فإن الشيطان ييأس من غوايته ، ويغلق باب الطمع في إضلاله ، ويجلس محسورا » (١) .

ولهــم تـقسيم اخــر فــي تـجلي الحـق فـي قـلب السـالك والعارف ، يمر بمراحل أربع :

الاولى : التجلي الآثاريّ ، وهو تـجلى الحـق تـعالى عـلى صورة الجسمانيات في عالم الشهادة .

الثانية : التـجلي الافـعالي ، وهـو أن يـتجلى الحـق تـعالى على صفة من الصفات الفعلية .

الثالثة : التجلي الصفاتي ، وهو ان يتجلى الحق تعالى عـلى هــيئة الصـفات السـبع الذاتـية وهــي الحـياة والعـلم والقـدرة والارادة والسمع والبصر والكلام .

الرابـعة : التـجلي الذاتــي ، بـفناء السـالك والعـارف فـناءاً مطلقا .

فلا حول ولا قوة إلا بالله ، اشـارة الى التـوحيد الافـعالي ، ولا إله الا اللـه ، اشـارة الى التـوحيد الاسـمائي والصـفاتي لان اللــه هـــو الاسـم الاعـظم الجـامع لجـميع كـمالات الاسـماء والصـفات ، ويـاهو يـامن لاهـو إلا هـو ، اشـارة الى التـوحيد الذاتي وانه لاتحقق ذاتي في عالم الوجود الا له تعالى .

(١) المصدر : ١٤٣ .

قال الحكيم الالهي ميزرا مهدي الاشتياني: المراد بالتجلي الصفاتي مايكون في قبال التجلى الذاتى الذى يكون فى مرتبة ظهور ذاته تعالى بذاته لذاته فى مقام الاحدية الذاتية والتعين الاول والتجلى العلمى الجمعى الذاتى بنحو الكثرة فى الوحدة وبنحو الاجمال والبساطة الوجودية فانه فى ذاك الموطن وفى هذا التجلى حكم الكثرة والتعينات مغلوبة ومستورة تحت وحدة الذات الاحدية وليست ظاهرة الحكم والاثر حتى توهم سراية حكمها الى الظاهر والمجلى.

واما التجلى الصفاتى الذى فى مرتبة الواحدية والعلم التفصيلى القدرى فهو الذى به يظهر الاسماء والصفات والاعيان الثابتة فى مقام العلم بالفيض الاقدس وهو المراد هنا وانما جعل ذلك التجلى مبدء للظهور الوجودى انما هو فى مرتبة تجلية تعالى بالفيض المقدس والنفس الرحمانى لان ذلك التجلى الفعلى انما هو مظهر لاحكام الاسماء والصفات ومظاهرها التى هى الاعيان الثابتة والصور العلمية وظهور هذه الامور انما يكون بالتجلى الصفاتى والفيض الاقدس المقدم على الفيض المقدس

وبالجملة لما كان هذا التجلى تبعا للاول مترتبا عليه جعل الاول مبدء للظهور والكثرة ويمكن ان يكون المراد بالتجلى الصفاتى هو التجلى اعنى الفيض المقدس بان

يجعل التجلى الذاتى العلمى بالعلم القدرى التفصيلى فى مقام الواحدية بالفيض الاقدس بالنظر الى انه مظهر للاسماء والصفات ولوازمها ومظاهرها من مقام الكنز المخفى الى عرصة الظهور والجلاء لا التجلى الاول فى مقام الاحدية لان حكم الكثرة فيه مطوية ومستورة وليست الاسماء والصفات ولوازمها بظاهرة فيه وبناء عليه يطلق على التجلى الفعلى الايجادي اى الفيض المقدس التجلي الصفاتى بلحاظ كونه منشأ لظهوره تعالى بصفاته الجمالية والجلالية واللطفية والقهرية حيث أنها لم تكن بظاهرة فى مرتبة الواحدية والاحدية ... الخ [1] .

قال الاملي : في معنى لاحول ولاقوة إلا بالله ، وجوه :

الاول : ان يكون الحول بمعنى الحركة والقوة بمعنى الاستطاعة ، فالمعنى لاحركة ولااستطاعة لنا على التصرف الا بمشيئة الله سبحانه .

الثاني : ان يكون الحول بمعنى القدرة ، فالمعنى لاقدرة لنا على شيء ولاقوة الا باعانة الله سبحانه .

الثالث : أن يكون الحول بمعنى التحول والانتقال ، فالمعنى لاحول لنا على ترك المعاصي إلا بعون الله ، ولا طاقة لنا على الطاعات إلا بتوفيقه .

---

(١) حاشية منطق المنظومة : ٣٦٥.

الرابع : ان يكون الحول بمعنى الحيلة ، كما قيل ان الحيلة هي الحول قلبت واوه ياءا لانكسار ماقبلها ، فالمعنى لايوصل الى تدبير امر وتغيير حال الا بارادة الله سبحانه ومشيته .

قال : وكيف كان فعلى جميع المعاني المذكورة الكلمة المباركة ناظرة الى توحيد الافعال ، و لا اله الا هو اشارة الى توحيد الصفات لكون كلمة الله اسما للذات المستجمع لجميع صفات الجمال والكمال فجميع الصفات مستهلكة في صفاته ، و إلا هو اشارة الى توحيد الذات يعني لاذات إلا لِمُذَوِّتْ الذوات ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل [١] .

وقال النيسابوري في تفسيره :

« ولقد لقنني بعض المشايخ من الذكر : « ياهو ، يامن هو ، يامن لاهو إلا هو ، يامن لاهو بلا هو إلا هو » فالاول فناء عما سوى الله والثاني فناء في الله والثالث عما سوى الذات والرابع فناء عن الفناء عما سوى الذات » [٢] .

حقيقة الفناء

وليس معنى الفناء هو البطلان والعدم المحض والزوال الخالص ، او يرتفع التمييز بين الحق والعبد ، اذ هذا يستلزم

---

(١) درر الفوائد : ج ٣٨٣/٢.

(٢) تفسير صدر المتألهين : ٤٧/١ .

الاتـحاد او الحـلول ، والاول بـان يـصعد المـمكن الى درجـة الوجوب الذاتي والثاني بأن ينزل الواجب الى درجـة الامكـان الذاتي ، فالرب رب والعبد عبد .

بل المقصود بـه الفـناء الحكـمي والاسـتهلاك الوجـودي كاستهلاك أنوار الكواكب في النـهار بـنور الشـمس حـيث ان انوارها لا تتميز في الابصار حقيقة ، فـالسالك لايـرى الا نـور اللـه تـعالى وكـلُّ الوجـودات الامكـانية بـرمتها مسـتهلكة ومحتجبة في هذا النور الازلي الصمدي .

فالفناء فـي المـقام بـمعنى اسـتهلاك وارتـفاع حكـم انّـية الفاني مع بقاء ذاته حقيقة ، فأنوار الكـواكب حـينما تسـتهلك في الشمس لايبقى حكمها وأثرها وهـو الاضـاءة لاحـتجابها بنور أشد وجودا منها مع بقاء الذات والحقيقة [١] .

قال الفاضل القيصري :

« لما كان التجلي بـحسب اسـتعداد المـتجلى له ، فـالقلب الذي يسع الحق لايكون الا لمن له اسـتعداد جـميع التـجليات الالهية الذاتية والاسمائية ، واذا وسـعه لايسـع مـعه غـيره مـن المخلوقات ، وذلك اما لفناء غير الحـق عـند تـجليه فـي نـظر المتجلى له ، كما اذا تـجلى بـالاحدية ، فـان الكـثرة تـضمحل

---

(١) وهو المشار إليه في قوله :

بـيني وبـينك إنـيٌّ يـنازعني فارفع بـلطفك إنـيَّ مـن البـين

وتفنى عنده، فالمتجلى له لايشعر لنفسه فضلا عن غيره ولايرى ذاته أيضا الا عين الحق حينئذ، او لاختفاء الاغيار عند ظهور أنوار الحق في نظر المتجلى له، كاختفاء الكواكب عند طلوع الشمس مع بقاء أعيانها »[1].

وقال الحكيم السبزواري :

يامن هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره
بنور وجهه استنار كلُّ شيٍ وعند نوره وجهه سواه فيءٌ

ثم قال في شرح هذه الابيات : أي لاحجاب مسدول ولاغطاء مضروب بينه وبين خلقه، الا شدة ظهوره وقصور بصائرنا عن اكتناه نوره، اذ المحيط الحقيقي لايصير محدودا مستورا، فالحجاب مرجعه امر عدمي هو قصور الادراك، فهو في عين ظهوره باطن أيضا لقصور المدرك[2].

فنوره ملأ أركان السموات والارض ولشدّته قصرت الابصار والمدارك عن احاطته ومشاهدة كما ينبغي، فهو باطن في عين ظهوره وظاهر في عين بطونه، وباطنيته ليس بحجاب يسدل وبغطاء يضرب وانما لفرط نوريته، فلا حجاب بينه وبين خلقه الا شدة ذلك الظهور والقصور في

---

(١) شرح فصوص الحكم : ٧٧٢.
(٢) غرر الفوائد : ج٢/٤٤، بتصرف.

البصائر والأبصار عن اكتناه نوره [١] .

وقد ورد في الدعاء عن الامام عليه السلام « ياباطناً في ظهورهِ وياظاهراً في بطونهِ ياباطناً ليس يخفىٰ ياظاهراً ليس يرىٰ » ، وفي حرز الامام الجواد عليه السلام « أسألك يانور النهار ويانور الليل ويانور السماء والارض ونور النور ونورا يضيىء به كل نور ... وملأ كل شيء نورك » « يامن ملئت كل شي وباينت كل شي ».

وقال امير المؤمنين عليه السلام « كل ظاهر غيره غير باطن وكل باطن غيره غير ظاهر » ، بمعنى انه تعالى ظاهر في كل شيء ، وظاهره باطن وباطنه ظاهر بخلاف الممكنات فان ظهورها محتجب عن باطنها وبالعكس .

فالسالك اذا وصل الى هذه المرتبة من الدنو والقرب الالهي يرى ويشاهد ذلك النور ملأ عالم الامكان فلا يرى إلا ذلك النور الالهي ويغفل عن ما سواه من الوجودات الامكانية ، فعند ذلك يشاهد ويرى العارف اتحاد الحامد والمحمود والحمد ، واتحاد الذاكر والمذكور والذكر ، اذ

---

(١) فلا دليل على ادراكه الا بالعجز عن دركه ، وفي هذا يقول سيد الساجدين والعابدين والعارفين علي بن الحسين عليه السلام « وانحسرت الابصار دون النظر الى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقاً الى معرفتك الا بالعجز عن معرفتك » فلا بد من انعدام جهات النفس للسالك حتى تتحقق حالة الفناء «راضي» .

وجـود الحـامد ليس بـذاتـه اولا وبـالذات بـل بـالله كـذلك، وعندما يـحمد هـذا الحـامد ليس فـعله اولا واخـرا وانـما اولا وبالذات فعل الله تعالى، وهذه الصفة الكـمالية وهـي الحـمد هي لله كذلك.

لقد كنتُ دهراً قبل ان يُكشف الغطاء

أخـالك انـي ذاكـرٌ لك شـاكـرُ

فلما اضاء الليلُ اصبحتُ شاكـراً

بأنَّك مـذكورٌ وذكـرٌ وذاكـرُ (١)

وقال صدر متألهة الاسلام:

«كل مرتبة من المراتب يكون التـنزل والخـفاء فـيها أكـثر كان ظـهورها عـلى المـدارك الضـعيفة اشـد والحـال بـعكس ماذكر على المدارك القـوية كـمراتب انـوار الشـمس بـالقياس الى أعين الخفافيش، ولهـذا يكـون إدراك الاجسـام التـي هـى فـي غـاية نـقصان الوجـود أسـهل عـلى النـاس مـن إدراك المفارقات النورية، التـي هـي فـي غـاية قـوة الوجـود وشـدة النورية، لاأشد منها في الوجود والنـورية الا بـاريها ومـبدعها وهو نور الانوار ووجود الوجـودات، حـيث إن قـوة وجـوده وشدة ظهور غير متناهية قـوة ومـدة وعـدة، ولشـدة وجـوده

---

(١) فعندها يزهق الباطل ويظهر الحق كما ينبغي ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا﴾ «راضي».

وظهوره لاتدركه الابصار ولاتحيط بـه الافـهام ، بـل تـتجافى عنه الحواس والاوهام وتنبو منه العقول والافـهام ، فـالمدارك الضـعيفة تـدرك الوجـودات النـازلة المـصحوبة بـالاعدام والملكات المـختفية المـحجوبة بـالاكـوان المـنصبغة بصبغ الماهيات المتخالفة .

ثم قال : ولو لم تكن المـدارك ضـعيفة قـاصرة عـن إدراك الاشياء على ماهي عليه لكان ينبغي ان يكون ماوجوده أكـمل وأقـوى ظـهوره عـلى القـوة المـدركة وحـضوره لديـها أتـم وأجلى ، ولما كان واجب الوجوب من فـضيلة الوجـود أظـهر الاشياء عندنا وحيث نجد ان الامر عـلى خـلاف ذلك ، عـلمنا ان ذلك ليس مـن جـهته ، إذ هـو فـي غـاية العـظمة والاحـاطة والسـطوع والجـلاء والبـلوغ والكـبرياء ، لضـعف عـقولنا وانغماسها في المادة وملابستها للاعـدام والظـلمات تـعتاض عن ادراكه ، ولانتمكن ان نعقله على ماهو عليه فـي الوجـود ، فان افراط كماله يـبهرها لضـعفها وبـعدها عـن مـنبع الوجـود ومعدن النور والظهور ، من قبل سـنخ ذاتـها لامـن قـبله ، فـان لعظمته وسعة رحمته وشدة نوره النافذ وعـدم تـناهيه أقـرب الينا من كل الاشياء ، كما اشار إليه بقوله تعالى ﴿ ونحن اقـرب اليه من حبل الوريد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ واذا سألك عبادي عـني فاني قريب ﴾ .

ثم اضاف : فثبت ان بطونه من جهة ظهوره فهو باطن من حيث هو ظاهر ، فكلما كان المدرك أصح ادراكا وعن الملابس الحسية والغواشي المادية أبعد درجة كان ظهور أنوار الحق الاول عليه وتجليات جماله وجلاله له أشد وأكثر ، ومع ذلك لايعرفه حق المعرفة ولايدركه حق الادراك ، لتناهي القوى والمدارك ، وعدم تناهيه في الوجود والنورية ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ [(١)].

فالفناء ليس هو العدم المحض والاتحاد او الحلول تعالى الله عن ذلك ، وانما الفناء كما قال العارف الكاشاني أن لايرى العبد وجودا إلا للحق ، فتتجلى له الوحدة بكل مظاهرها فلا يرى الكثرة ، لابتعاده عن غواشي المادة والحجب الظلمانية وكذا النورانية فتشتد مداركه ويرى الحق بحسبه كيانه ووجوده وشدته ولا يرى شيئا غيره ، وهذا هو المعبر عنه في الكلمات «بوحدة الشهود» والفناء أيضا وصول السالك الى مرتبة « موتوا قبل ان تموتوا » .

وقال الحكيم السبزواري :

« الموت للانسان والفناء للملائكة المقربين والعقول القديسين ، وكذا في الانسان الموت للأبدان والفناء لنفوسها وعقولها ، فان للانسان نشآت ثلاث : الجسم والنفس

---

(١) الاسفار : ج ٦٩/١ .

والعقل، وقيامات ثلاث: صغرى ووسطى وكبرى، فانه اذا انتقلت النفس من هذه النشأة قبض منها الوجود الطبيعي لا الوجود البرزخي أو الاخروي الصوري.

قال: وأسباب انتقالاتها في كل موضع مسماة باسم كالموت للانتقال من نشأة الجسم الطبيعي الى نشأة النفس [١]، ونفخة الفزع للانتقال من نشأة النفس الى نشأة العقل اخذا من قوله تعالى ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات والارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ والاستثناء [٢] بالنسبة الى من تحقق بمضمون «موتوا قبل ان تموتوا» وسمع قوله تعالى ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قبل الاخرين، ونفخة الصعق للانتقال من نشأة العقل الى مقام رجوع الامر الى الله الواحد القهار آخذا من قوله تعالى ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والارض الا من شاء الله﴾ والمستثنى في الاية من مات قبل ان يموت وسمع نداء ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قبل القيامة الكبرى.

---

(١) فالموت قسمان: الموت الارداي، وهو فناء العبد في الله.
والموت الطبيعي، وهو تعفن أخلاط الجسم الذي ينتج فيه عدم صلاحية الجسم للاستمرار في الحياة «راضي».

(٢) في قوله تعالى (الا من شاء الله) فانه لايفزع.

قال : والفناء فله مراتب ثلاث : المحو والطمس والمحق ، فالمحو ان يرى كل فعل مستهلكا في فعله تعالى الواحد ، كما قال تعالى ﴿وما امرنا الا واحدة ﴾ فيقول « لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم» والطمس أن يرى كل صفة كمالية مقهورة مبهورة في صفته والاسماء الحسنى كلهالله والعظمة له والحمد له اذا الفضائل له أينما وقعت ، وفي الدعاء « اليه يرجع عواقب الثناء » فيقول « لا اله الا الله» والمحق أن يشاهد كل وجود منطوٍ في وجوده ، فانه الوجود الصرف والوجوب البحت والموجود في نفسه لنفسه ، وكل ذات منمحقة عند ذاته ، فانه القائم بالذات والقيوم على الاطلاق ، وكل هوية متلاشية في هويته ، فانه هو المطلق وهويته كل «هو» فيقول «ياهو يامن لاهو الا هو» وفي كل مقام من المقامات الثلاثة والتوحيدات الثلاثة ينطق بكلمات التوحيد المذكورات لسانا وحالا ومقاما ، وبعبارة اخرى : تعلقا وتخلقا وتحققا، وبعبارة اخرى : فطرة وحالا واستقامة ﴿ فاستقم كما امرت ﴾ [(١)] .

وقال سلطان المحققين نصير الدين الطوسي :

« ان العارف اذا انقطع عن نفسه واتصل بالحق رأى كل قدرة مستغرقة في قدرته المتعلقة بجميع المقدورات ، وكل

---

(١) شرح دعاء الصباح : ٢١٦ ـ ٢١٩ .

علم مستغرقا في علمه الذي لا يعزب عنه شيء من الموجودات ، وكل إرادة مستغرقة في إرادته التي تمتنع أن يتأبّى عليها شيء من الممكنات ، بل كل وجود وكل كمال وجود فهو صادر عنه فائض من لدنه ، صار الحق حينئذ بصره الذي به يبصر وسمعه الذي به يسمع وقدرته التي بها يفعل ، وعلمه الذي به يعلم ، ووجوده الذي به يوجد ، فصار العارف حينئذ متخلقا باخلاق الله بالحقيقة (١) .

فهذا هو معنى الفناء في المقام وهو كون السالك مصداق لقوله تعالى في الحديث القدسي « وما يتقرب اليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه ، وانه ليتقرب اليّ بالنوافل حتى أُحبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ، ان دعاني أجبته وان سألني أعطيته » (٢) .

السالك والشطحات

واذا وصل السالك الى هذا المقام ، أصبح وجوده وجودا حقانيا ولم يعد يرى الكثرة واحتجب بالوحدة ، فعندها قد تصدر منه بعض الشطحات فيقول « سبحاني ما اعظم شأني » اذ لا يرى في الوجود إلا هو ، بل يغفل حتى عن ذاته ، وهذا

---

(١) شرح الاشارات : .   (٢) الكافي : ح ٣٥٢/٢ .

هو خطورة هذا السفر .

ومنشأ هذه الشطحات الخلل في البرنامج السلوكي للعارف ، الكاشف عن عدم تخلص العارف من الانانية بل لازلت متوغلة في كيانه حتى ظهرت بمظهر ولباس الربوبية ، وإلا لو كان السلوك صحيحا وعلى مقتضى الموازين الشرعية لما افضى الى هذه النتيجة وصدور مثل هذه الشطحات [١] .

---

(١) الشطح : ألفاظ وعبارات موهمة الظاهر تستشكل ظواهرها ، ويقف الناس منها مواقف تتفاوت حظها من الانكار ، والتحسين ، والتأويل ، ولكنها على أى حال ألفاظ ، وعبارات صدرت عن أصحابها في وصف مايخضعون له من الوجد الغالب على نفوسهم ، فهو تعبير عن حال وجد فائق للطبيعة فيكون الخطاب بصيغة المتكلم ، اذ يحدث الواصل على لسان الحق لأنه يعتقد أنه صار والحق شيئاً واحدا .

ولذلك حرص الصوفية على عدم إذاعة سر هذا اللقاء الفريد في الحضرة الالهية بين العبد والمعبود ، فمن آذاع فقد شطح ، فلهذا فلا بد من اندكاك جبل الانانية عند السالك حتى لايضطرب حاله وينقلب الى حب الذات والنفس ويكون بهذا قد احتجب بالحجاب الابليسي .

ومما ينبغي ان يذكر أن الشطحات ولو أن عباراتها الظاهرة تبدو منفرة للفقهاء وأهل الشرع إلا أنها تعبر في حقيقتها الباطنة عن أكمل مرتبة في التوحيد لدى الشاطح ، إذ أنها تقتصر الوجود الحق على الله .

ولذا نظم السيد الامام الخميني قدس سره شعراً بالفارسية بعنوان الفناء في الحب يقول فيه بما معناه :

أيها المجلى الكامل لـ «أنا الحق» في العرش العالي العالمي

وعلق عليه المحقق في الحاشية : فعبارة أنا الحق هنا يشير فيها الامام الى

ومن هنا تتجلى اهمية الرياضات الشرعية التي لابد ان يقوم بها السالك في سفره من الخلق الى الحق ، وأنها لابد ان تكون مأموراً بها شرعا ومأخوذة من الكتاب والسنة واحاديث اهل البيت عليه أفضل الصلاة والسلام ، والتحصن من الاخذ ممن لايطمئن له والاقتصار في الاخذ من المعصوم الذي له الولاية المطلقة .

ولذا سئل بعض العرفاء المعاصرين عن حقيقة العرفان فأجاب : هو رسالة عملية بأضافة مفاتيح الجنان ، فلسنا بحاجة الى تشريع اعمال ورياضات من عندياتنا ، اذ كل مايحتاج له السالك في اسفاره الاربعة من رياضات وممارسات وعبادات واعمال بيّنها القرآن والسنة بصورة عامة وفصلتها احاديث اهل بيت العصمة عليهم افضل الصلاة والسلام .

قال الامام الخميني قدس سره :

وفي هذين السفرين لو بقي من الانانية شيء ، يظهر له شيطانه الذي بين جنبيه بالربوبية ، ويصدر منه الشطح ، والشطحيات كلها من نقصان السالك والسلوك وبقاء الإنية والأنانية ، ولذلك بعقيدة أهل السلوك لابد للسالك من معلم ،

هذا المعتقد الذي يذوب فيه الصوفي ذوبانا كاملاً في الله ويوجه خطابه الى مثل هذا الصوفي الذي هو المجلى الكامل لوحدة الوجود التي يقول هو بها ؛ «راضي» .

يرشده الى طريق السلوك ، عارفا كيفياته ، غير معوج عن طريق الرياضات الشرعية ، فان طرق السلوك الباطني غير محصور بعدد انفاس الخلائق [(١)] .

وقد : حاول بعض الناس الدفاع عن السلاك اذا صدر عنهم الشطح في نهاية هذا السفر من كونهم غافلين عما يقولونه ، بل في قرارة انفسهم ان مايقولونه هو الحق لاغير لاندكاك كل الإنيات في الذات الالهية وفناء العبد فيه ، فصدور الشطح منهم لعله علامة على صحة السفر والمسير ، كما انهم غير مآخذين على مايقولونه اذ هم بمثابة النائم فكما ان النائم لو صدرت عنه مثل هذه الكلمات لايؤاخذ ولا يعاقب ولايحكم عليه بالكفر والزندقة فليكن حال السلاك كذلك ايضا ، اذ هم في عالم يختلف عن عالم اليقظة الذي نحن فيه .

قلت : وهذا التبرير والدفاع هو الذي سوّل للكثير بان تصدر عنهم كلمات صريحة في الكفر والزندقة تقليدا لبعض اعاظم العرفاء ، حتى يعتقد الناس بانهم وصلوا الى نهاية السفر الاول وبدواالثاني ، فما افاده الامام الخميني من ان الشطح منشأه سقم البرنامج والافتقار الى الاستاذ المرشد هو المذهب المتين والقول الجزل الذي يقتضيه الذوق السليم

---

(١) مصباح الهداية : ٨٨.

والعقل الامير [١] .

قال ابن عربي : الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونه [٢] ودعوى ، وهي نادرة أن توجد من المحققين [٣] .

نعم هذه الحالة يعتبرها المتقدمون عن ابن عربي صفة كمالية للعارف ، بينما جعلها ابن عربي صفة عجز تلحق غير المحققين من السلاك والعرفاء .

وقال الطوسي في اللمع : الشطح معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته ، وهاج بشدة غليانه وغلبته ... فالشطح : لفظة مأخوذة من الحركة لانها حركة أسرار الواجدين اذا قوي وجدهم فعبروا عن وجودهم ذلك بعبارة يستغرب سامعها ، فمفتون هالك بالانكار والطعن عليها اذا سمعها ، وسالم ناج برفع الانكار عنها والبحث عما يشكل عليه منها بالسؤال عمن يعلم علمها ... الاترى ان الماء الكثير اذا جرى في نهر ضيق فيفيض من حافتيه يقال شطح الماء في النهر، فكذلك المريد الواجد اذا قوي وجده ، ولم يطق

---

(١) قال نصير الحق والدين الطوسي في أوصاف الاشراف : أن من قال : أنا الحق ، وسبحاني ماأعظم شأني ، لم يكن في مقام الادعاء بالالوهية ، بل هو بذلك قد نفى إنيّته وأثبت إنيّة الغير وهو المطلوب .

(٢) الرعونة من رعن رعناً رعونة ، وهو من الطيش والحمق والتسرع ، كان أهوج في كلامه فهو أرعن .

(٣) اصطلاحات الصوفية .

حمل مايرد على قلبه من سطوة انوار حقائقه سطع ذلك على لسانه ، فيترجم عنهابعبارة مستغربة مشكلة على مفهوم سامعيها الا من كان من أهلها .

وقال الجرجاني : الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونه ودعوى ، وهو من زلات المحققين ، فإنه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير إذن إلهي بطريق يشعر بالنباهة .

كلمات أهل الفن في بيان هذا السفر

قال الحكيم الاشتياني : « أن السالك في السفر الاول ، الذي هو من الخلق الى الحق تكون الكثرة حاجبه له عن مشاهدة الوحدة ، والخلق عن الحق ، فيهاجر الى ربه قائلا ﴿ اني مهاجر الى ربي ﴾ ليرفض غبار الكثرة المانع عن شهود شمس الوجود ، بكشف الحجب الظلمانية والنورانية والاستار الخلقية والامكانية ، فهو في بدو سلوكه يرى الكثرة من حيث كونها كثرة ويكون الخلق حاجبا له عن الحق ، وفي أواسط سلوكه يشاهد الخلق ، بما هو أدلاء على خالقه وأعلام ظهوره ، لكن بما هو غيره وسواه .

وفي نهاية سلوكه يظهر له شمس الهوية عن مطلع وجوده وسره ، فيرى الخلق مستهلكاً في الحق وانه تعالى غاية المقاصد ومنتهى المآرب ، فينتهي الى هنا سفره الاول

وهو السفر من الخلق الى الحق »[1].

وقال فخر العرفاء القمشئي : الاول السفر من الخلق الى الحق برفع الحجب الظلمانية والنورية التي بين السالك وبين حقيقته التي هي معه أزلا وأبدا ، وإن شئت قلت : بالترقي من قام النفس في مقام القلب ومن مقام القلب في مقام الروح ومن مقام الروح الى المقصد الاقصى والبهجة الكبرى وهي الجنة المزلفة للمتقين في قوله تعالى (وازلفت الجنة للمتقين) أي المتقين عن ادناس مقام النفس وهي الحجب الظلمانية ، وأنوار مقام القلب وأضواء مقام الروح وهي الحجب النوارنية فان المقامات الكلية للانسان هي الثلاثة وقيل أن بين العبد وبين الرب ألف حجاب يرجع الى تلك الثلاثة الكلية .

فاذا وصل السالك الى المقصود برفع تلك الحجب المذكورة يشاهد جمال الحق ويفنى فيه ، وربما يقال لذا مقام الفناء في الذات ، وفيه السر والخفي والاخفى لكنها من السفر الثاني وسنبينه آنفا .

وقد يعتبر في مقام الروح ـ العقل ـ نظرا الى تفصيل شهود المعقولات فتصير المقامات سبعة : مقام النفس ، ومقام القلب ، ومقام العقل ، ومقام الروح ، ومقام السر ، ومقام الخفي ، ومقام الاخفى ، وتلك المقامات تسمى بذلك الاسم

---

(١) تعليقات على شرح المنظومة : ٣٥.

باعتبار كون تلك الحالة للسالك ملكة ، فان لم تكن ملكة لاتسمى مقاما وهي مراتب الولاء وبلاد العشق والمحبة الذي أشار اليها العارف القيومي المولى الرومي :

هفت شهر عشق را عطّار گشت

ما هنوز اندر خم يگ كوچه ايم

بمعنى ان العارف المشهور عطار النيشابوري قد قطع مدن العشق السبعة ، اما نحن فلا زلنا في منعطف زقاق واحد من تلك المدن .

وقال العلامة ميرزا محمد ابن الحكيم الالهي علي النوري :

أعلم أن الانسان مادام لم يشرع في سلوكه العملي والنظري يشاهد الكثرة دائما ويغفل عن مشاهدة الوحدة وكل شيء يشاهده يشاهده بصفة الكثرة ، والكثرة في نظره وشهوده مانعة عن شهود الوحدة ، والوحدة محتجبة عنده بالكثرة ، فاذا شرع في سلوكه العملي من الاثار الى المؤثر ومن الموجودات الى الصانع تضمحل الكثرات عنده شيئا فشيئا الى الوحدة الصرفة الحقة الحقيقية ، بحيث لايشاهد الكثرة أصلا ويغفل بالوحدة ولايشاهد الا الوحدة ، ويستغرق في مشاهدتها عن مشاهدتها ، ومنزلة هذا المنزل في السلوك الحالي منزلة السفر الاول للسالك العارف ، وهو السفر من الخلق الى الحق ، اي من الكثرة الى الوحدة ، واذا وصل الى

عالم الوحدة واحتجب عن مشاهدة الكثرة فحينئذ يستدل السالك بالسلوك العلمي من ذات الحق ووحدته على أوصافه وأسمائه وأفعاله مرتبة بعد مرتبة »[1] .

الثاني : السفر من الحق الى الحق بالحق

فبعد الفناء في مقام الفعل والصفات والذات يتخلص السالك من الانانية فلا يكون للشيطان فيه نصيب ، ويكون وجوده وجودا حقانيا ، فيبدأ سفره الثاني بالتخلق والتحقق بالاسماء الالهية والصفات الحسنى صفة صفة واسما اسما ، فينتقل من الاسماء والصفات الجزئية الى الكلية منها فيتلبس ويتخلع بهذه الاسماء والصفات على قدر ظرفيته وقدرته وشدة وجوده ومراتب سيره ، فيكون مظهرا للاسماء والصفات ويُعلّم بعض الاسماء او كلها على قدر طاقته وكماله وسعت وجوده .

ففي هذا السفر يصل الانسان الى العلم بالاسماء فعلا بعد ان كانت له قابلية تعلمها والاتصاف بها ، فيصبح مسجودَ الملائكة وتبدأ ولايته وخلافته الالهية ﴿ واذا قال ربك

(١) حاشية الاسفار الاربعة : ١٦ .

للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم مالاتعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني باسماء هولاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال ياآدم انبئهم باسمائهم فلما انبأهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السمٰوات والارض واعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا ابليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

ففي هذا السفر يرفع العارف حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنة ، وهو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه ، وهو السير في الحق بالحق الى الافق الاعلى وهو نهاية حضرة الوحدانية .

ويمتاز هذا السفر بعدة امور :

الاول : ان هذا السفر مبدأه الحق المقيّد ومنتهاه الحق المطلق ، فهو سفر من الحق الى الحق بالحق ، منه وبه واليه ، ففيه يكون العارف مظهرا للصفات صفة بعد صفة الى ان يبلغ الى كماله وحدّه وطاقته .

الثاني : يمتاز هذا السفر بانه بعيد الطريق وطويل المسافة فكلما تقدم السالك وقطع المراحل وازداد تحققا بالاسماء

والصفات الالهية رأي نفسه بانه لازال يراوح في مكانه لكون من الله والى الله وبالله وهو فوق مالايتناهي بما لايتناهى مدة وعدة وشدة، ولعل إليه يشير امير العارفين والمكاشفين «آه من قلة الزاد وبعد السفر».

الثالث: ان نهاية السفر الاول هي الفناء في مقام الذات فلا يرى العارف الكثرة ويكون محتجبا عنها بالوحدة، اما في هذا السفر فتشمله العناية الالهية فيخرج من حالة المحو والفناء الى حالة الصحو، فيرى الكثرة في عين الوحدة والوحدة في عين الكثرة، فلا تكون الكثرة مانعة عن الوحدة ولا تكون الوحدة مانعة عن الكثرة، وهو المعبّر عنه «بالفناء بعد الفنائين».

فهذه الكثرة التي يراها في عالم الاسماء والصفات ومظاهرها لاتحجبه عن الوحدة، فلا يكون اعور العين بل يرى الوحدة ويرى الكثرة في عرض واحد، فيصحو بعد محوه، ويرجع الى الاحساس بعد غيبته وزوال احساسة بواردٍ قوي.

فيكون مصداقا لقول أمير المؤمنين عليه السلام «مارأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه» فهو يرى الكثرة بالوحدة ولاتحجبه الوحدة عن رؤية الكثرة، بل هي اداة لرؤية الكثرة والتعدد، فيرى السالك نفسه ـ وبقية الممكنات ـ محض

التعلّق والحرفية ، ويشاهد رأي العين حقيقة قوله عليه السلام « فسبحانك ملأت كل شيء ، وباينت كل شيء فأنت لا يفقدك شيىء ، وانت الفعال لما تشاء ، تباركت يامن كل مدرَك من خلقه ، وكل محدود من صنعه »[١] .

قال العلامة ميرزا محمد حسن النوري : وفي هذه المرتبة ربما انشرح صدر السالك عن الضيق والتزاحم وحلت عقود العجز عن لسانه بحيث يشاهد الكثرة في الوحدة ، والوحدة في الكثرة ، ولا يحجبه مشاهدة الوحدة عن مشاهدة الكثرة ولا يشغله العكس ، ويصير جامعا لكلتا النشأتين وبرزخا بين المقامين »[٢] .

وقال فخر العرفاء القمشئي : فاذا افنى السالك ذاته فيه تعالى ينتهي سفره الاول ويصير وجوده وجودا حقانيا ويعرض له المحو ويصدر عنه الشطح فيحكم بكفره ويقام

---

(١) اثبات الوصية للمسعودي : ١٠٧ .

(٢) فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة ، ومن أشهده الحق سبحانه مايوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد بشاهد الجمع ، فاثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من نعت الجمع ، ولابد للعبد من الجمع والفرق فانه من لافرق له لاعبودية له ومن لاجمع له لامعرفة له ، فجمع بلا فرق زندقة ، وفرق بلا جمع تعطيل «راضي» .

عـليه الحـد [١] ، فـان تـداركـته العـناية الالهـية يـزول مـحوه ويشمله الصحو ويقر بذنبه وعبوديته بعد مـاظهر بـالربوبية ، قال ابو زيد البسطامي : الهي ان قلت يـوما «سـبحاني مـاأعظم شأني» فانا اليوم كافر مجوسي فانقطع زنادي ، واقـول : أشـهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله » .

وقال صدر متألهة الاسلام : انظر أيها السالك طـريق الحـق ماذاترى من الوحدة والكثرة جمعاً وفـرادى ، فـإن كـنت تـرىٰ جـهة الوحـدة فـقط فأنت مـع الحـق وحـده لارتـفاع الكـثرة اللازمة عن الخلق ، وإن كنت ترى الكثرة فقط فأنت مع الخـلق وحده ، وإن كنت ترى الوحدة في الكثرة محتجبة والكثرة فـي الوحدة مستهلكة فـقد جـمعت بـين الكـمالين وفـزت بـمقام الحسنيين ، والحـمد للـه فـي العـظمة والكـبرياء وله الاسـماء الحسنى » [٢] .

قلت : ولهذا المقام أشار الشاعر العارف :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكـل الامـر

---

(١) فهو وان كان صادقا في دعواه ووصل الى مـرحـلة لايـرى ولايشـاهد إلا الوحدة ، إلا ان عدم الحكم بكفره واقامة الحد عـليه تـجعل الطـريق مـفتوح امام أدعياء الكشف والشـهود ، فـهو مـن قـبيل قـول زعـيم الاوليـاء وخـاتم الولاية المطلقة عجل الله فرجه الشـريف فـي احـدى مكـاتباته « مـن ادعـى الرؤية فكذبوه » فهو وان رآه حقا لكنا مأمورون بتكذيبه لقـطع الطـريق امـام مدعي السفارة والرؤية كذبا.

(٢) الاسفار : ج ٢/ .

فكـــانما خـــمر ولاقــدح   وكأنـــما قـــدح ولاخـــمر

وهو مقام الاحـدية مـقام الجـمع بـحيث لايكـون الخـلق حجابا عن الحق ولا الحق عن الخلق، فليس حـقيقته فـي ذاك المقام جحد أصلا، فان الجحد من الاحتجاب.

الرابـــع : أن اخـتلاف وتـمايز درجـات الانـبياء والاوليـاء والعرفاء ينشأ من هذا السـفر، فـبمقدار مـايأخذ السـالك مـن مــعارف التـوحيد ويـتلبس بـالاسماء الالهـية تكـون درجـته ومستواه، فبعض السلاك يكون مـظهرا لاسـم جـزئي او اكـثر وبعضهم يكون مظهرا لمجموعة من الاسماء الكـلية، وثـالث يكون مظهرا لاسم الله الاعظم فـيجمع كـل الاسـماء الجـزئية والكلية.

وان اقصى ماوصل اليه انسان في هذا السـفر هـو الرسـول الاكرم صلى الله عليه وآله فكان قاب قوسين او ادنى مـن ذلك، فـقد وصـل الى مكان لايـمكن لاحـد مـن ان يـصل اليـه بـحسب الوقـوع الخارجي، وقد صـرح القـرآن بـهذه الحـقيقة فـقال ﴿وان الى ربك المـنتهى﴾ فـالاية الكـريمة لم تـقل ان المـنتهى الى رب العالمين وانما الى رب مـحمد صلى الله عليه وآله وهـذا مـعناه انـه لادرجـة فوق درجة رب الرسول الاكـرم صلى الله عليه وآله، اذ لو وصـل اليـه أحـد لما كان هو المنتهى [1].

---

(١) وعن عبيد الله بـن عـبدالله الدهـقان قـال: دخـلت عـلى ابـي الحسـن

وبعد الرسول ﷺ امير الاولياء والمتقين علي ابن ابي طالب عليه افضل الصلاة والسلام ثم تكملة الائمة الاثني عشر ، فانهم وصلوا الى مرتبة لاقياس بينها وبين ماوصل اليه سائر البشر حتى الانبياء والمرسلين.

ففي حديث عنهم عليهم السلام « ان الله عز وجل جعل اسمه الاعظم على ثلاثة وسبعين حرفا فاعطي آدم خمسة وعشرين حرفا واعطي نوحا منها خمسة عشر حرفا واعطي ابراهيم ثمانية احرف واعطي موسى منها اربعة احرف واعطي عيسى منها حرفين وكان يحيي الموتى ويبرىء بهما الاكمه والابرص واعطي محمد اثنين وسبعين حرفا واحتجب حرفا لئلا يعلم مافي نفسه ويعلم مافي نفس العباد »[1].

وفي حديث آخر مستفيض « ان اسم الله الاعظم على ثلاثة وسبعين حرفا وانما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالارض مابينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الارض كما كانت اسرع من طرفة عين

الرضا عليه السلام فقال لي : مامعنى قوله ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾ قلت : كلما ذكر اسم ربه قام فصلى ، فقال لي : لقد كلف الله عز وجل هذا شططا ، فقلت : جعلت فداك فكيف هو ؟ فقال : كلما ذكر اسم ربه صلى على محمد واله » ، وقال تعالى ﴿اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لله رب العالمين﴾.

(١) بصائر الدرجات : جزء ٤ باب ١٣ ح ٣.

وعندنا نحن من الاسم الاعظم اثنان وسبعون حرفا وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم »[(١)] .

وسيأتي مزيد من الايضاح والتفصيل حول درجات الانبياء والائمة والاولياء والعارفين في السفر الرابع أو بعده فانتظر .

الخامس : ان ولاية السالك والعارف تبدأ من هذا السفر ، اذ يكون عين الله الناظرة واذنه السامعة وجنب الله في ارضه وخليفته في بلاده فلا يكون للشيطان والانانية فيه نصيب وهو مقام قرب الفرائض[(٢)] .

قال فخر العرفاء القمشئي في بيان هذا السفر : ثم عند انتهاء السفر الاول يأخذ السالك في السفر الثاني ، وهو السفر من الحق الحق بالحق ، وانما يكون بالحق لانه صار وليا وجوده وجودا حقانيا فيأخذ في السلوك من موقف الذات الى

---

(١) المصدر : حديث ١ .

(٢) مقام قرب النوافل بان يكون الاله سمع وبصر العبد والسالك ، ومقام قرب الفرائض بان يكون العبد بصر الله وسمعه ويده ، ولذا ورد عنهم عليهم افضل الصلاة والسلام « نحن حجة الله ونحن باب الله ونحن لسان الله ونحن وجه الله ونحن عين الله في خلقه ونحن ولاة امر الله في عباده » واستفاض عن امير المؤمنين عليه السلام « انا عين الله انا يد الله انا جنب الله انا باب الله » راجع بصائر الدرجات : ج ٢ باب ٢ ، والكافي .

الكمالات واحدا بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم الاسماء كلها الا ماستأثره عنده فتصير ولايته تامة ويفني ايضا ذاته وافعاله وصفاته في ذات الحق وصفاته وافعاله ، فبه يسمع وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش ، والسر فناء ذاته والخفاء فناء صفاته افعاله والاختفاء فناء فنائيته ، وان شئت قلت السر هو الفناء في الذات وهو منتهى السفر الاول ومبدء السفر الثاني والخفاء هو الفناء في الالوهية والاخفاء هو الفناء عن الفنائين فتتم دائرة الولاية وينتهي السفر الثاني وينقطع فنائه ويأخذ في السفر الثالث »[1].

الثالث : السفر من الحق الى الخلق بالحق

فبعد ان ينتهي السالك من السفر الثاني ويقطع فنائه ويرجع الى حالة الصحو التام ويتحقق بالاسماء الالهية كلها أو بعضها ـ كلا على حسب استعداده وقابليته ـ ويأخذ قسطه من المعارف المرتبطة بالمبدأ والمعاد ، يبدأ سفره الثالث وهو من الحق الى الخلق بالحق ، وهذا السفر يعاكس الاول تماما ، ويفترق عن الاول في كونه سفر بالحق ، وفي هذا

---

(١) حاشية الاسفار ج ١/١٥.

السفر يجوب السالك في العوالم الامكانية من جبروت وملكوت وناسوت فيشاهد هذه العوالم كلها باعيانها ولوازمها.

فعند ذلك تبدأ مسئوليته وهي ايصال هذه المعلومات الى المستعدين، فينبأ بالمعارف التي شاهدها وتلبس وتحقق بها.

قال فخر العرفاء القمشئي : ويأخذ في السفر الثالث وهو السفر من الحق الى الخلق بالحق، ويسلك من هذا الموقف في مراتب الافعال ويزول محوه ويحصل له الصحو التام، ويبقى ببقاء الله ويسافر في عوالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويشاهد هذه العوالم كلها باعيانها ولوازمها، ويحصل له حظ من النبوة فينبىء عن المعارف من ذاته تعالى وصفاته وافعاله، وليس له نبوة التشريع فانه لايخبر الا عن الله تعالى وصفاته وافعاله، ولا يسمى نبيا، ويأخذ الاحكام والشرايع من النبي المطلق ويتبعه »، انتهى.

فالانباء هنا ليس بمعناه الشرعي الاصطلاحي وانما بمعناه اللغوي وهو الابلاغ والاعلام.

قال العارف الكبير السيد حيدر الاملي : اعلم ان النبوة عند هذه الطائفة هي الإخبار عن الحقائق الالهية، اي معرفة ذات الحق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وهي على قسمين:

نبوة التعريف ونبوة التشريع .

فالاولى : هي الإنباء عن معرفة الذات والاسماء والصفات .

والثانية : جميع ذلك مع تبليغ الاحكام ، والتأديب بالاخلاق ، والتعليم بالحكمة ، والقيام بالسياسة ، وتختص هذه النبوة بالرسالة .

وللنبوة اعتباران : اعتبار الاطلاق واعتبار التقييد ، أي العام والخاص ، والتشريع وغير التشريع ، فالمقيدة من النبوة ما تقدم تعريفها ، وأما المطلقة فهي النبوة الاصلية الحقيقية ، الحاصلة في الازل ، الباقية الى الابد ، كقول النبي ﷺ « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »(١) والنبوّة الاصلية بالحقيقة هي عبارة عن اطلاع ذلك النبي المخصوص بها على استعداد جميع الموجودات بحس ذواتها وماهياتها وحقايقها ، واعطاء حق كل ذي حق منها بلسان استعداداتها ، من حيث الانباء الذاتي والتعليم الحقيقي الازلي المسمّى بالربوبية العظمى والسلطة الكبرى ، وصاحب هذا المقام هو الموسوم بالخليفة الاعظم وقطب الاقطاب والانسان الكبير وآدم الحقيقي ، المعبر عنه بالقلم الاعلى والعقل الاول والروح الاعظم وأمثال ذلك .

---

(١) وروي « كنت نبياً ولاآدم ولاطين » .

قال :وإليه أشار النبي ﷺ « خلق الله آدم على صورته » وكذلك « من رآني فقد رأى الحق » و « أول ماخلق الله نوري » و « أول ماخلق الله العقل » و « أول ماخلق الله القلم » و «أول ماخلق الله الروح » وغير ذلك من الاخبار الواردة فيه [١] .

قال : وإليه أشار المحققون في اصطلاحهم بعين الله وعين العالم ، بقولهم : عين الله هو الانسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى ، لان الله تعالى ينظر بنظره الى العالم ، فيرحمه بالوجود ، كما قال « لولاك لما خلقت الافلاك » « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

قال : وإليه أشار المحققون أيضا في اصطلاحهم بعين الحياة فقالوا : عين الحياة هو باطن الاسم الحي ، الذي من تحقق به شرب من ماء عين الحياة ، الذي من شربه لا يموت أبداً ، لكنه يحيا بحياة الحق ، والى ماء هذا العين اشار ـ جل ذكره ـ ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ وإليه أشار أيضاً ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وإليه أشار ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ وهي المسماة بالعين الكافوري والحوض والكوثر ، في قوله ﴿ ان الابرار يشربون من كأس

(١) والصحيح ان كل ذلك مسميات لحقيقة واحدة ذات تجليات متعددة وظهور مختلف .

كان مزاجها كافورا ﴾ وقوله ﴿ انا اعطيناك الكوثر ﴾ واليها نسب الخضر عليه السلام لانه شرب منها قطرة.

إلى أن قال: وصاحب هذا المقام هو مرجع الكل ومبدؤه ومصدر الكل ومنشؤه، وهو المبدأ وإليه المنتهى المعبر عنه «ليس وراء عبادان قرية» وإليه تستند كل العلوم والاعمال، وإليه تنتهي جميع المراتب والمقامات، نبيّا كان ـ صاحب هذا المقام ـ او ولياً وصيا أو رسولا.

وباطن هذه النبوة هي الولاية المطلقة، والولاية المطلقة هي عبارة عن حصول مجموع هذه الكمالات بحسب الباطن في الازل، وابقائها الى الابد، كقول أمير المومنين عليه السلام «كنت ولياً وآدم بين الماء والطين» وكقول النبي صلى الله عليه وآله «أنا وعلي من نور واحد» وكقوله «خلق الله روحي وروح علي بن ابي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي عام» وكقوله فيه بعث عليّ مع كل نبيّ سراً ومعي جهراً»[1].

حكم المكاشفات

والسالك في ظرف اعلامه وانبائه بالمعارف لايخلو حاله: اما ان يكون معصوما وقد ثبتت عصمته واما ان لايكون كذلك.

فان ثبتت عصمته فقوله فيما يخبر عن معارف واسرار

---

(١) جامع الاسرار ومنبع الانوار: ٣٧٩الى ٣٨٢.

المبدأ والمعاد واحكام الدين حجة يجب الاخذ بـه ، امـا اذا لم تثبت عصمته فـليس بـحجة مـطلقا إلا اذا صـدقها مـن ثـبتت عصمته او اقيم عليها البرهان .

بيان ذلك : ان مكاشفات العارفين والسالكين الى الله تعالى لاتخلو من حالتين :

امـا ان يكـون مـتعلق تـلك المكـاشفات أموراً مـرتبطة بالعقيدة والحقائق التكوينة .

واما ان تكون متعلقة بالشريعة العملية والاحكام الفقهية .

فان كان الاول : فهو ليس بحجة على الاخرين وكذلك ليس بـحجة فـي حـقه ايـضا ، وذلك لان المـعارف التـي شـاهدها العارف والسالك في مواطنها الخاصة وتحقق وعلم بـها عـلما حضوريا في مرحلة الانباء وايصالها للاخرين على نحو العـلم الحصولي قد يقع في الخطأ حينما يحاول تفسير ماكوشف به وماعاينه .

وتوضيح ذلك : ان العارف فـي ظـرف مكـاشفته ومـعاينته للحقائق يرى الحق والواقع على ماهو عليه ، وليس ثَـمّ مـجال للـخطأ والاشـتباه ، إذ الكشـف والمـعاينة مـن نـمط العـلم الحضوري وهو كما حقق في محله غير قابل للـخطأ وتـخلل الاشتباه ، فما يراه المكاشف هـو الواقـع بـعينه وهـو المـطابق للحق ، ولكن حينما ينتقل العارف والمكاشف الى حالة اخرى

وينقطع كشفه ومعاينته للحقائق في مواطنها الخاصة، فاذا اراد ان يخبر عن ماكُوشف به وماعاينه من معارف، وبتعبير اخر اذا اراد ان يحول ذلك العلم الحضوري الى علم حصولي يقع في الخطأ والاشتباه في التطبيق فحينما يفسر كشفه يفسره على أساس تلك الاعتقادات الباطلة والمعلومات الخاطئة التي يحملها.

مضافا الى اختلاف عالم اليقظة ـ ان صح التعبير ـ مع عالم الكشف والمعاينة، فالسالك في حين معاينته للمعارف في عالم وحينما ينقطع عن المشاهدة والمعاينة ينتقل الى عالم آخر له احكام تختلف عن احكام ذلك العالم، وعليه فما هو الضمان على نقل ماشاهده في تلك العوالم الى هذا العالم على ماهو عليه، وكيف يمكن الجزم بعدم تدخل المؤثرات الشيطانية والعادات المتأصلة والعقائد الفاسدة في تفسير هذا الكشف اذا لم يكن المكاشف معصوما من الخطأ والاشتباه.

ولذا سئل بعض الاعاظم عن احد العرفاء فقال هو مكاشف حقا وجزما ولكنه لحقه ضعف من بيئته، اي حينما يريد تفسير ماكوشف به يكون لتلك العوامل البيئية التي اثرت في كيانه ونفسيته دور بارز في الصياغة والنقلة من العلم الحضوري الى العلم الحصولي، فلا تكون تفسيراته

لمكاشفاته على ماينبغي وكما هي واقعا.

وهذا من قبيل الاحلام فان تفسيرها يختلف من مفسر الى آخر باختلاف أديانهم وافكارهم ومعتقداتهم وبيئاتهم، فقد يصل تفسير المنام الواحد الى اكثر من عشرة تفاسير باختلاف المفسرين.

ولعل منشأ كثير من شطحات الصوفية هو انهم كوشفوا فعلا وجزما ولكنهم حينما تحولوا من ظرف المكاشفة والمعاينة الى ظرف آخر لم يستطيعوا ان ينقلوا ماعاينوه كما هو هو، بل فسروا ماشاهدوه من حقائق بما يوافق ويلائم معلوماتهم الحصولية وعقائدهم الخربة الخاطئة المجانبة عن الحق فوقعوا في الشطح والفساد والانحراف، ووجد الشيطان ضالته فيهم فعشعش في صدورهم واستولى على مشاعرهم وباض في قلوبهم وتمكن منهم، واصبح حالهم كبلعم بن باعورا الذي اتاه الله من اياته فانسلخ منها فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث [١].

---

(١) كما نفهم من قوله تعالى ﴿ لايأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ أن من لم يكن ذا عصمة ربانية بتأييد من الله فسوف يكون مايلقيه مخلوط ببعض الالقاءات الشيطانية كما هو صريح قوله تعالى ﴿ وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله مايلقي الشيطان ثم يحكم الله أياته والله

وليس هذا انكار لحقيقة المكاشفه وأنها لاتحصل الا للمعصوم، بل حتى غير المعصوم اذا كان سلوكه الى الله وفق البرنامج الصحيح الذي تميله الفطرة السليمة والدين القويم يصل الى مبتغاه وتحصل له المكاشفة تلو المكاشفة ويكون صادقا في انه كوشف، لكن الكلام ليس في اصل تحقق المكاشفة وانما ماهو متعلق المكاشفة وهل يمكن للمكاشف ان ينقل ماعاينه الى عالم اخر وفق ماهو عليه واقعا ام انه قد يقع في الخطأ والاشتباه، ومادام اننا لانجزم بالنقل بالمطابقة فلا تكون مكاشفات العارفين حجة حتى في حق انفسهم لعدم الامن من الخطأ والزلل.

نعم اذا أخبر العارف عن كشفه وكان مااخبره مطابق للبرهان والقران فهو حجة لذلك لالكشفه، فالعصمة هي الضمان الوحيد لتجنب الخطأ في الاخبار والتطبيق وان

عليم حكيم ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وأن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ وعليه فمن كان يريد سلوك هذا الطريق والوصول الى مرتبة الكشف فعليه ان يتلبس ويتحصن بلباس التبعية لاهل بيت العصمة حتى لايكون للشيطان عليه سبيل، ولكي يكون مصداقا لقوله تعالى ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ﴾ اذ السماء هنا سماء النفس الانسانية فمن تخلق بها فسوف يكون محفوظا من كل شيطان **﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهاباً رصدا ﴾** ببركة الخاتم وأهل بيته صلى الله عليه واله «راضي».

ماأخبر به المكاشف عين ماراه واقعا في تلك العوالم، مضافا انه ليس كل السلاك لهم القدرة على وصف ماشاهدوه وعاينوه من حقائق ومعارف.

فمن يذوق الحلاوة لعل له القدرة على وصفها واعلام الاخرين بحقيقتها، ولعل ليس له القدرة على ذلك، فاذا حاول شرحها للاخرين ربما يقع في الاشتباه بعدم ايصال تمام حقيقتها إليهم، وبما اننا نشك في ذلك وليس عندنا جزم بالمطابقة فليس ماكوشف به العرفاء والسلاك حجة على الاخرين الا اذا ثبتت عصمتهم ولم تثبت الا عصمة الرسول ﷺ واهل بيته الائمة الاثني عشر مع امهم الزهراء عليها افضل الصلاة والسلام.

ولذا نجد كثيرا من المكاشفات التي ادعاها العرفاء متضادة فيما بينها، ولعل منشأ هذا التضاد هو الخطأ في التفسير وبيان ماانكشف للعارف، من هنا لابد ان تكون اخبارات العارف بما كوشف به متطابقة مع الشرع والبرهان وإلا فهي ليس بحجة [1].

---

(١) قال ابن عربي في الفتوحات ج١٧٦/٣: الغلط يطرأ على أهل الكشف لعدم الاستاذ، ويعظم الغلط ممن لم يكن بين يدي استاذ قد رباه، أستاذ متشرع، عارف بموارد الاحكام الشرعية ومصادرها، فإن الله ما نصب طريقاً الى معرفته ـ التي لايستقل العقل بإدراكها من حيث فكره ـ الا ماشرعه لعباده على ألسنة رسله وأنبيائه.

قال الامام الخميني [١] : ان الشيخ بحسب كشفه في عالم المكاشفة راى في العين الثابتة الاسحاقية اقتضاء هذا المعنى الذي ظهر في اسماعيل عليه السلام في عالم الملك من العبودية التامة والفناء التام، فاخبر عما ظهر عليه من العين الثابتة، وهذا المكاشفة صحيحة، الا ان عدم الظهور في عالم الملك لقوة العين الثابتة الاسماعيلية او لمانع اخر، هذا.

فأشكل عليه تلميذه الحكيم الاشتياني حفظه الله : بان الظاهر من كلام الشيخ وقوعه بالنسبة الى اسحاق في عالم الملك.

فصدق قدس سره ذلك وقال : يمكن ان يكون كشفه صحيحاً، الا ان خياله لماكان مشوباً تمثل له المعنى المجرد عن اللباس في عالم خياله بصورة اسحاق عليه السلام، فان المكاشفات تقع مجردة عن الصورة، ولكن الخيال يمثلها بأي صورة شاء بمجرد مناسبة، والغالب دخالة المأنوسات والمعتقدات في ذلك التمثل.

ثم قال الحكيم الاشتياني حفظه الله ولنعم ماقال : ان الكشف الصريح المحمدي يدل على ان الفداء عن اسماعيل، وقد

---

(١) على تعليقة على الفصوص في الفص الاسحاقي على قوله «لانه به مأمور كما قال في اول الكتاب»، اذ ابن عربي كما هو صريح كلامه ذهب الى أن الذبيح هو اسحاق وهذا يخالف ماعليه أهل البيت عليهم السلام وجملة من المحققين المدققين من العامة بل أكثر المسلمين.

اطبق ائمتنا وساداتنا الوارثين للعلوم والاحوال والمقامات المحمدية على ان الفداء عن ذبيح الله اسماعيل عليه السلام ، وعليه جل ارباب التفسير والحديث من العامة ، واما ماقيل ان الشيخ مأمور والمأمور [(١)] معذور كلام خال عن التحصيل ولا يعبأ به [(٢)] .

ثم أضاف : وانت تعلم ان في كتاب الفصوص مواضع نقض واشكال ، لايمكن توجيهها الى الرسول لان المؤلف قد صرح في اوائل كتابه ان الملقى على خياله او قلبه هو الرسول او الله .

قال العارف المشهور ابن تركه : اعلم ان اصحاب النظر والتعليم عندهم علم يمكن ان يتميّز به النظر الصحيح عن الفاسد ويمكن ان يكون ايضا ان يعرف به وجه الحق عن الباطل وليس عند السالكين من اصحاب المجاهدة آلة من

---

(١) ففي مقدمة الفصوص قال ابن عربي : أما بعد فإن رأيت رسول الله صلى الله عليهواله في مبشِّرة أُريتها في العشر الاخر من المحرم لسنة سبع وعشرين وستمائة ، بمحروسة دمشق ، وبيده صلى الله عليه واله كتاب ، فقال لي : هذا كتاب «فصوص الحكم» خذه واخرج به الى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله، وأولي الامر منَّا كما أمرنا .

(٢) قال : وكذا من قال ان الشيخ رأى في حضرة الارتسام ان الفداء عن اسماعيل ، ولما تنزل ما شهده في الخيال ذهب وهمه الى اسحاق من جهة كمال المناسبة بين عين الاسماعيلي والاسحاقي .

شأنها ماذكرناه.

فلئن قيل: ان علومنا وجدانية، وكما لايفتقر في حصول العلوم الوجدانية الضرورية الى صناعة آلية مميزة، فكذلك العلوم الحاصلة لنا بالذوق والوجدان.

قلنا: ان مايجده بعض السالكين قد يكون مناقضا [١] لما يجده البعض الاخر منهم، ولهذا قد ينكر البعض منهم البعض الاخر في ادراكاتهم ومعارفهم.

ومتى عرفت هذا فنقول: لابد للسالكين من اصحاب المجاهدة ان يحصلوا العوالم الحقيقية الفكرية النظرية اولا بعد تصفية القلب بقطع العلائق المكدرة المظلمة وتهذيب الاخلاق وتزكيتها وتزيينها حتى تصير هذه العلوم النظرية التي تكون من جملتها الصناعة الالية المميزة بالنسبة الى

---

(١) وعلق عليه بعض الاساتذة المشايخ بقوله: ففي بحث الوحدة والكثرة طائفة ترى الوحدة حقيقية والكثرة وهمية كثانية مايراه الاحول ويلزمهم مايلزم من نفي الشرائع ونحوها، وطائفة اخرى منهم تشاهد الوحدة والكثرة حقيقتين حسبما بيّنه شيخ مشائخنا الحكيم المتأله القمشئي، وطائفة تعد نفسها منهم ترى الكثرة فقط حقيقة وأنها ـ اي الكثرة المحضة ـ عبارة عن الله الظاهر فيها وليس له تعالى بدون المظاهر المتكثرة وجود حسبما نقله في غير موضع من الاسفار نحو مافي ج٢/٣٤٥، فمن كل ذلك يتبين ضرورة وجود الانسان الكامل الكمّل الذي لايكذب فؤاده مايراه بوجوده العقلي ولايزيغ بصره مايشاهده بوجوده المثالي فتدبر، تحرير تمهيد القواعد: ٧١٣.

المعارف الذوقية كالعلم الالي المنطقي بالنسبة الى العلوم النظرية.

فلو تحيّر الطالب والسالك وتوقف في بعض المطالب التي لاتُحصّل بالفكر والنظر، حصله بالطريق الاخر، ويدرك وجه الحق فيه بالملكات المستفادة من هذه العلوم الحاصلة له بالفكر والنظر، هذا اذا لم يكن له شيخ مكمّل يرشده في كل مقام ومنزل »[١].

وان كان الثاني : وهو ان ما كوشف به متعلق بالشريعة العملية والاحكام الفقهية فهي ليس بحجة مطلقا، لكون الاحكام الشرعية ليس مطلق القطع والعلم بها حجة بل الحجية فيها لقطع خاص، فالقطع بها عن طريق المكاشفات والمنامات وغيرها ليست بحجة لعدم أذن الشارع في جعلها كبرى قياس الاستنباط.

وانما هناك موارد خاصة أذن الشارع في جعلها موردا لاستنباط الحكم الشرعي وهي أربعة على خلاف في بعضها[٢]، الكتاب والسنة والعقل والاجماع، وان كان

---

(١) تمهيد القواعد، وراجع ماافاده حفيده العارف في شرحه عليه.

(٢) اذ ذهب بعض المحدثين الى عدم حجة القطع الحاصل من مقدمات عقلية غير بديهية، ولعل مرادهم في ذلك ان الاحكام الشرعية مأخوذ في موضوع استنباطها ان تكون من الكتاب والسنة، فليس هو منع عن حجة

الثالث والرابع ليس بحجة مستقلة عن الكتاب والسنة، فحجية العقل مستفادة من القران والسنة، ووظيفته الكشف عن الاحكام من الكتاب والسنة، اما الاجماع فهو في حقيقته من السنة لكون مناط الحجية فيه كشفه عن رأي المعصوم عليه السلام، والتفصيل في علم الاصول.

القطع مطلقا اذ المقام يكون على هذا التصوير قطعا موضوعيا لاطريقيا، اذ يمكن تصور ان الشارع منع من استنباط حكمه من القياس والاستحسان والمنامات والمكاشفات والرمل والجفر وما اشبهها ـ من الامور التي قد يحصل من خلالها القطع الشخصي ـ بل الاحاديث الكثيرة ظاهر في حصر استنباط الحكم الشرعي في الكتاب والسنة والاخذ عن المعصوم.

قال الشيخ الاعظم في رسائله: وأمثلة ذلك ـ اي اخذ القطع من سبب خاص في موضوع الحكم الشرعي ـ بالنسبة الى حكم غير القاطع كثيرة، كحكم الشارع على المقلد بوجوب الرجوع الى الغير في الحكم الشرعي إذا علم به من الطرق الاجتهادية المعهودة، لامن مثل الرمل والجفر، فان القطع الحاصل من هذه وإن وجب على القاطع الاخذ به في عمل نفسه، الا انه لايجوز للغير تقليده في ذلك، وكذلك العمل الحاصل للمجهد الفاسق او غير الامامي من الطرق الاجتهادية المتعارفة فانه لايجوز للغير العمل بها.

لكن ماافاده قدس سره من وجوب العمل بالقطع وان كان حاصل من مثل الرمل والجفر في الاحكام الشرعية بالنسبة للقاطع دون غيره، لايمكن قبوله ولذا اطبق الكل ومنهم الشيخ قدس سره على عدم حجية المنامات مع حصول القطع الشخصي منها، ولو فتح المجال لحجية القطع بالاحكام الشرعية من غير الطرق الاربعة المزبورة لما بقي حجر على حجر في الابواب الفقيهة، وبملاحظة كلام الشيخ الاعظم في معظم رسائله يظهر انه غير قاصد لذلك والله العالم.

أهمية المكاشفات

وليس معنى أنها ليست بحجة عدم الفائدة من المكاشفات التي حصلت للعارفين والسائرين والسلاك، بل هذه المكاشفات حتى لو لم تكن معصومية لها ثمار ونفع كثير، فكم فتحت هذه المكاشفات الطريق للتدبر في القران الكريم والاحاديث النبوية والولوية والتحقيق فيها، وكم وجهة العقول نحو الجادة الصحيحة للتفكير المثمر والمنتج بحيث لولاها لما وصلت العقول الى ماوصلت اليه.

ولعل من اعظم انجازات صدر المتألهين انه استطاع بواسطة مكاشفاته ومكاشفات الاخرين من ان يؤسس منظومة فلسفية متينة متراصة الابعاد والجوانب وأن يطفر بالفكر البشري الى مرحلة عالية من الدقة والجهد العقلي، وان يقيم البرهان على صحة مكاشفاته ويوفق بينها وبين القواعد العقلية والبصائر القرانية.

قال خاتمة الفلاسفة الالهيين الطباطبائي : ان التأمل الدقيق في الحقائق الدينية والمكاشفات العرفانية وتطبيقها مع الاسس العقلية البرهانية، هيأت ارضية جديدة لصدر المتألهين لكي يحقق تقدما كبيرا في الابحاث الفلسفية من خلال الروح المتحركة والخلاقة التي حلت في الفكر الفلسفي واخذت موقع السكون والخمود الذي كان يحكمها

مضافا الى النظريات المبتكرة والعميقة التي أضافها للفكر الفلسفي »[١] .

تعريف الكشف وأنواعه

الكشف لغة : رفع الحجاب ، فكشفت المرأة وجهها بمعنى رفعت نقابها .

وعند العرفاء : الاطلاع على ماوراء الحجاب من المعاني الغيبية والامور الحقيقة .

وهو على ضربين : كشف صوري ، وكشف معنوي .

والاول : مايحصل من طريق الحواس في عالم المثال ، وهو على أقسام :

١ / إما أن يكون عن طريق المشاهدة ، كرؤية المكاشف صور الارواح المتجسدة والارواح الروحانية التي انتقلت من عالم الدنيا الى الاخرة ، وحقائق البشر والموجودات ، وإليه أشار صلى الله عليه وآله في الحديث العامي « إن الله تعالى زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها » .

وهو الذي تحقق لابي بصير ببركة الامام الباقر عليه السلام ، قال للباقر عليه السلام : ماأكثر الضجيج وأعظم الحجيج فقال : بل ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج ، أتحب أن تعلم صدق ماأقوله وتراه عيانا ؟ فمسح بيده على عينه فدعا بدعوات فعاد بصيراً ، فقال

---

(١) مجموعة مقالات ٦/٢ .

: أنظر ياابا بصير الى الحجيج، قال: فنظرت فإذا أكثر الناس قردة وخنازير والمؤمن بنيهم كالكوكب اللامع في الظلماء»[١] ومثله ورد عن ابي بصير مع الصادق عليه السلام، والزهري مع السجاد.

وعن صالح بن سعيد قال: دخلت على ابي الحسن الهادي عليه السلام فقلت: جعلت فداك في كل الامور أرادوا إطفاء نورك والتقصير بك، حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع خان الصعاليك، فقال عليه السلام: هٰهنا أنت يابن سعيد، ثم أومأ بيده فقال انظر فنظرت فإذا بروضات آنقات، وروضات ناضرات، فيهن خيرات عطرات، وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون، وأطيار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري والتمتع وحسرت عيني، فقال عليه السلام: حيث كنا فهذا لنا عتيد ولسنا في خان الصعاليك[٢].

ومنه مايسمي في العلم الحديث بالجلاء البصري القريب والبعيد، إلا أن هذا السنخ من الكشف والجلاء مختص بالنشأة الدنيوية.

٢ / وإما عن طريق السماع كسماع النبي صلى الله عليه وآله الوحي النازل كلاماً منظوماً، وهو المشار إليه في قول الصادق عليه السلام حينما غشي عليه بعد قراءة القران مازلت أكرر آيات القران

---

(١) البحار ج٢٦١/٤٦.

(٢) الكافي ج ٤٩٨/١.

حتى بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن انزلها [١] .

٣ / وإما عن طريق الاستنشاق وهو التنسم بالنفحات الالهية والتنشق بفوحات الربوبية وإليه أشار صلى الله عليه وآله في الحديث «إن لله تعالى في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها» وقول الامير عليه السلام « تعطروا بالاستغفار لاتفضحنكم روائح الذنوب » [٢] .

٤ / وإما عن طريق التذوق ، وهو المشار إليه في الحديث المشهور عند العرفاء «إني أظل عند ربي فيطعمني ويسقيني» .

٥ / وإما عن طريق الملامسة وهو بالاتصال بين النورين او بين الجسدين المثاليين .

وقد أشار القران الكريم الى بعض اقسام هذا الكشف بقوله ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هو أضل ، أولئك هو الغافلون﴾ [٣] وقوله ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [٤] .

---

(١) البحار ج٥٨/٤٧ .

(٢) البحار ج٢٢/٦ عن الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام .

(٣) الاعراف : ١٧٩ .

(٤) سورة ق : ٢٢ .

وهذه الاقسام من الكشف الصوري قد يجتمع بعضها مع بعض وقد ينفرد، وهي تجليات أسمائية، اذ الكشف الشهودي من تجليات اسم «البصير» والسماعي من تجليات اسم «السميع» وقس على ذلك البواقي، وكلها من شؤون اسم «العليم».

ومتعلق الكشف الصوري تارة يكون الحوادث الدنيوية، وهو المسمى بالرهبانية، واخرى يكون الحوادث الغيبية والحقائق الروحانية من الارواح العالية والملائكة السماوية والارضية.

وهذا الكشف في بعض اقسامه وانواعه قد يحصل لبعض أصحاب الديانات والملل المنحرفة والمذاهب الخربة من المرتاضين السحرة والمشعوذين.

قال البروجري: إن انواع الكشف الصوري أما أن تتعلق بالحوادث الدنيوية أو لا، فإن تعلقت بها سميت عندهم رهبانية لاطلاعهم على المغيبات الدنيوية الحسية بحسب رياضاتهم ومجاهداتهم، وإن كان قد يحصل ذلك أيضا لغير المسلمين، بل لغير المليين كالبراهمة والجوكية والزنادقة والكهنة وأرباب الرياضات الباطلة، لان ترتب بعض العلوم والاثار على بعض الافعال والاحوال منقبيل ترتب الخاصة على ذيها، على انه سبحانه قد كتب على نفسه أن لا يرد سائله

ولا يخيب آمله [١] .

والثاني «الكشف المعنوي» : فهو ظهور المعاني العينيَّة والحقائق الغيبية، وله مراتب :

الاولى : ظهور المعاني في القوة المفكرة من غير استعمال المقدمات وترتيب القياسات، بل بأن ينتقل الذهن من المطالب الى مباديها ويسمى بالحدس .

الثانية : ظهور المعاني في القوة العاقلة .

الثالثة : ظهور المعاني في مرتبة القلب .

الرابعة : ظهور المعاني في مرتبة الروح .

الخامسة : ظهور المعاني في مرتبة السر، ثم ظهورها في مرتبة الخفي بحسب مقاميهما .

ولتفصيل هذه المراتب عليك بمراجعة جامع الاسرار ومنبع الانوار للسيد حيدر الاملي، ومقدمة القيصري والجامي في شرحهما للفصوص، وغيرها من الكتب المعدة في مسائل العرفان النظري .

الكشف والشهود

الكشف كما تقدم هو الاطلاع على ماوراء الحجاب من المعاني الغيبية والامور الحقيقية، فمتعلق الكشف هو المعاني، اما المشاهدة فمتعلقها الذوات، فالمشاهدة

---

(١) تفسير الصراط المستقيم ج ٥٦/٢ .

للمسمى والمكاشفة لحكم الاسماء، فكل من المشاهدة والمكاشفة موصلان للمعرفة مع اختلاف المتعلق وهو المعاني والذوات.

قال ابن عربي: المكاشفة عندنا أتم من المشاهدة إلا لو صحت مشاهدة ذات الحق لكانت المشاهدة أتم، وهي لاتصح فلذلك قلنا المكاشفة أتم لانها ألطف، فالمكاشفة تلطف الكثيف، والمشاهدة تكثف اللطيف، فالمكاشفة إدارك معنوي فهي مختصة بالمعاني.

وأما الالهام: فيكون بقذف المعاني والحقائق في قلوب الاولياء من عالم الغيب دفعة أو تدريجاً، ويمثلون له بشعاع الشمس بالنسبة لبيوت المدينة وأهلها.

وعرفه المناطقة: أنه مايلقى من العلوم والمعارف من دون إعمال الفكر او اقامة التجارب.

وهو المسمى في أحاديث أهل البيت عليهم السلام بالنكت في القلوب، وهو من مصادر المعرفة للمعصوم عليه السلام.

فعن الصادق عليه السلام قال: علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الاسماء ... وأما النكت في القلوب فهو الالهام، وأما النقر في الاسماع فحديث الملائكة نسمع كلامهم ولانرى اشخاصهم[1].

---

(١) البحار ج٢٦ / ١٨.

وعن ابن يقطين قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن شيء من امر العالم، فقال: نكت في القلوب ونقر في الاسماء وقد يكونان معاً[١].

ويقسم الى عام وخاص، وبسبب وغير سبب، وحقيقي وغير حقيقي.

قال العارف الاملي: وأما الالهام فيكون أيضا خاصا ويكون عاماً:

فالخاص مخصوص بالاولياء والاوصياء، وهو يكون أيضا بواسطة وغير واسطة فالذي يكون بالواسطة هو يكون بصوت خارج عن الشخص، يسمعه ويفهم منه المعنى المقصود، وهذا يخصونه بأول حالة الانبياء، كالرؤيا وغيرها، ويعدونه من القسم الثاني من الوحي، وهو جائز، وان كان بالالهام أنسب.

والالهام الذي يكون بغير الواسطة، يكون بقذف المعاني والحقايق في قلوب الاولياء من عالم الغيب دفعة او تدريجاً كشعاع الشمس مثلا بالنسبة الى بيوت المدينة وأهلها.

وأما الهام العام، فيكون بسبب وغير سبب، ويكون حقيقياً وغير حقيقي.

فالذي يكون بالسبب ويكون حقيقياً، فهو بتسوية النفس

---

(١) البحار ٥٨/٢٦.

وتحليتها وتهذيبها بالاخلاق المرضية والاوصاف الحميدة، موافقاً للشرع ومطابقاً للاسلام، لقوله تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾.

والذي يكون بغير السبب ويكون غير حقيقي، فهو يكون لخواص النفوس واقتضاء الولادة والبلدان، كما يحصل للبراهمة والكشايش والرهبان.

والتمييز بين هذيه الالهامين محتاج الى ميزان إلهي ومحك رباني، وهو نظر الكامل المحقق والامام المعصوم والنبي المرسل، المطلع على بواطن الاشياء على ماهي عليه، واستعدادات الموجودات وحقايقها.

الوحي والالهام

والفرق بين الوحي والالهام على ماذكر بعض أهل المعرفة:

١ / ان الالهام قد يحصل من الحق الملك العلام من غير واسطة الاملاك الكرام بل من الوجه الخاص، اما الوحي لايكون الا بواسطة الملائكة الفخام ومن هنا لاتسمى الاحاديث القدسية بالوحى مع أنها كلام الله تعالى باتفاق الاعلام.

٢ / ان الوحى يكون من الكشف الشهودى المتضمن للمعنوى والالهام كشف معنوى صرف.

٣ / ان الوحى يكون من خواص النبوة دون الالهام .

٤ / ان الوحى يحصل مع الاطلاع على السبب الذى منه استفيد ذلك العلم الملقى بخلاف الالهام .

الرابع : السفر من الخلق الى الخلق بالحق

ومبدأ هذا السفر ومنتهاه هو الخلق باختلاف العوالم ، فهو متقابل في ذلك مع السفر الثاني ، اذ هو سفر من الحق الى الحق وفي الرابع سفر من الخلق الى الخلق ، ويشتركان في كونهما بالحق ، لكون وجود السالك نورانيا حقانيا ، فلا الوحدة حاجبة عن الكثرة والكثرة حاجبة عن الوحدة بل يرى الكثرة في عين الوحدة والوحدة في عين الكثرة .

وهو المسمى عندهم بمقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع .

وتوضيحه على ماجاء في كلماتهم : أن الفناء هو ان تفنى الخصال المذمومة عن السالك ، والبقاء ان تبقى الخصال المحمودة فيه ، فالسالكون يتفاوتون في الفناء والبقاء فبعضهم فَنِي عن شهوته فاذا فنية شهوته بقيت فيه نيته واخلاصه في عبوديته ، وبعضهم فَنِي عن اخلاقه الذميمة

كـالحسد والكبر والبغض وغير ذلك ، فتبقى فيه الفتوة والصدق والصفات الحميدة والاخلاق الجميلة ، فكل فناء بعده بقاء ومن ثمَّ كان البقاء أشرف من الفناء .

قال فخر العرفاء القمشئي الاصفهاني في بيان هذا السفر : ويأخذ في السفر الرابع وهو من الخلق الى الخلق بالحق ، فيشاهد الخلائق وآثارها ولوازمها ، فيعلم مضارها ومنافعها في العاجل والاجل ـ يعني في الدنيا والاخرة ـ ويعلم رجوعها الى الله وكيفية رجوعها ومايسوقها ويقودها ويخزيها ومايمنعها ويعوقها ، ويدعوها فيكون نبيا بنبوة التشريع ويسمى بالنبي ، فانه ينبئى عن بقائها ومضارها ومنافعها وعما به سعادتها وعما به شقاوتها ويكون في كل ذلك بالحق ، لان وجوده حقاني ولايشغله الالتفات اليها من التوجه الى الحق »[1] .

وقال الحكيم الالهي ميرزا مهدي الاشتياني : وبعد انتهاء ذاك السير والمعراج القرآني يشرع في السفر الرابع ، وهو السفر من الخلق الى الخلق بالحق ، فيسري من ظاهر الخلق الى باطنه ، ومن ملكه الى ملكوته ، ومن شهادته الى غيبه ، فيرى ملكوت الاشياء كما هي ، ويظهر له كيفية معاد الخلائق ، ورجوع الكل الى الله في القيامة العظمى والكبرى ، ويصير

(١) حاشية الاسفار : ج ١٥/١ .

قابلا لحمل الامانة الاسمائية والخلافة الكلية الالهية ، وان يكون نبيا بنبوة التعريف والتشريع كليهما ، او متصفا مع ذلك بالرسالة ومبعوثا بالسيف ، وبالغاً الى مقام «اولي العزيمة» ومن هنا يبتدي سير المحمديين ، فانهم يسافرون من ذاك المقام الذي هو مقام «قاب قوسين» الذي هو نهاية سير الانبياء الى مقام «أو أدنى» والى مارواء المطلق »[(١)] .

وقال الامام الخميني : ثم يأخذ في السفر الرابع ، وهو من الخلق الذي هو الحق «أي من حضرة الاعيان الثابتة» الى الخلق «أي الاعيان الخارجية» بالحق «أي بوجوده الحقاني» مشاهداً جمال الحق في الكل ، عارفا بمقاماتها التي لها في النشأة العلمية ، عالما طريقة سلوكها الى حضرة الاعيان فما فوقها ، وكيفية وصولها الى موطنها الاصلي ، وفي هذا السفر يشرّع ويجعل الاحكام الظاهرة القالبية والباطنية القلبية ، ويخبر وينبىء عن الله وصفاته وأسمائه والمعارف الحقة ، على قدر استعداد المستعدين »[(٢)] .

فيمتاز هذا السفر بأمور :

الاول : ان الواصل اليه يكون نبيا بنبوة تشريعة ، لمشاهدته للخلائق ومعرفته بآثارها ولوازمها وعلمه

---

(١) تعليقة على شرح المنظومة : ٣٢.

(٢) مصباح الهداية : ٨٩.

بمضارها ومنافها ، فينبأ الخلائق بما هو ضار لها وما هو نافع ويخبرها عن سعادتها وشقاوتها ، فيشاهد نور الحق في كل مايسمع ويرى ويلاحظ وجهه [١] -اي النور المنبسط منه- على كل شيء من كل مايظهر ويخفى .

الثاني : ان هذا السفر ليس متاح لكل السلاك فهناك من ينقطع سفره عند تمامه من السفر الثالث ، وانما هذا السفر منحة وهبة إلهية رحمانية رحيمية تعطى لبعض السلاك وتمنع عن اخرين .

وقد تسأل : هل جعل هذا السفر لامير الاولياء والمتقين واولاده المعصومين صلوات الله عليهم اجمعين ، ام ان سفرهم انقطع بنهاية الثالث .

والجواب : مما لااشكال ولاريب فيه أنهم عليهم افضل الصلاة والسلام قد تجاوزوا هذا السفر وقطعوه وانتهوا منه ، كيف لايكون كذلك وهم وجه الله وجنب الله وكلمات الله ومظاهر الاسم الاعظم بل هم عليهم افضل الصلاة والسلام الاسم الاعظم الجامع لجميع الصفات والاسماء ، فقد دَنَوْا فتدَلَّوا فكانوا قاب قوسين ، بل أدنى ، وورثوا جميع

---

(١) وهو نور الحقيقة المحمدية ، واليه اشير في الاحاديث المستفيضة المفسرة لقوله تعالى ﴿كل شيء هالك الا وجه﴾ فعن صفوان عن ابي ابي عبدالله عليه السلام قال : نحن وجه الله الذي لايهلك .

الكمالات الوجودية للخاتم صلى الله عليه واله، وان هذا جرى لآخرهم كما جرى ذلك لأولهم [١] .

مضافاً الى أن الانتهاء من هذا السفر لايستلزم مطلقا نبوة التشريع، بل السالك بعد انتهائه من هذا السفر قد يكون نبيا بنبوة تشريعية، وقد لايكون كذلك بل يكون تابعا لمن قبله من الانبياء، فلا تلازم بين هذا السفر وبين منصب النبوة التشريعية اذ قد تتحقق وقد لاتتحق.

وتوضيح ذلك أكثر : ذكرنا في السفر الثاني ان اختلاف وتمايز درجات الانبياء والاولياء والعرفاء ينشأ منه، فبمقدار مايأخذ السالك من معارف التوحيد ويتلبس بالاسماء الالهية تكون درجته ومستواه، فبعض السلاك يكون مظهرا لاسم جزئي او اكثر وبعضهم يكون مظهرا لمجموعة من الاسماء الكلية، وثالث يكون مظهرا لاسم الله الاعظم فيجمع كل الاسماء الجزئية والكلية.

وان اقصى ماوصل اليه انسان في هذا السفر هو الرسول الاكرم ﷺ فكان قاب قوسين او ادنى من ذلك، وعليه فلا

---

(١) قال ابن عربي بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني الالهي ولا أين يحصرها... وأقرب الناس إليه علي بن ابي طالب رضى الله عنه إمام العالم وسر الانبياء أجمعين» وفي نسخة بدل: وأقرب الناس إليه علي بن ابي طالب وأسرار الانبياء أجمعين، والمعنى واحد على كلا النسختين كما هو ظاهر للمتدبر.

توجد شريعة أكمل من شريعة خاتم الانبياء وسيد المرسلين ، اذ لا يمكن تصور ماهو أكمل واعلى منها ، فلم يصل الى ماوصل اليه ﷺ احد ولن يصل اليه احد مطلقا لانبي مرسل ولاملك مقرب ، فمقامه الجمعي كان ولايزال وسيبقى قمة الكمال والعلو الامكاني ، فمهما بلغ الانسان في المعارف والقرب الالهي فلا يمكن ان يبلغ شأو النبي الخاتم ﷺ ومرتبته الجمعية .

فمنشأ الشريعة الخاتمة ان صاحبها مظهر للاسم الاعظم ، بل كما قلنا هو بأبي وامي بوجوده النوري (١) الاسم الاعظم الجامع ، فهو حقيقة الوجود المنبسط الساري نوره في جميع هياكل الماهيات الامكانية ، واليه أشير في الزيارة الجامعة « وانفسكم في النفوس » ، فهو الماء الذي خلق الله منه كل شيء حي ، ويتلوه في الفضل والكمال

---

(١) فهو نور السماوات والارض وهو الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي ، قال بعض اهل المعرفة والتحقيق : المراد من نور علم الله هو نور الحقيقة المحمدية صلى الله عليه واله التى هى المظهر الاتم والمجلى االاعظم الاكرم لضرتى الاحدية والواحدية اللتين هما موطني العلم القضائي والقدرى الالهي وذالك النور منشأ كل اجادة وافادة ، ولذا ورد عنهم عليهم السلام : انهم السبيل الاعظم والصراط الاقوم وانهم محال معرفة الله ، لان سائر الانبياء والاولياء عليهم السلام من اشعة نوره وفياء وجوده وعكوس شمس حقيقته ودعوة جميع الانبياء الى الله من مراتب دعوته .

والشدة الوجودية امير الاولياء والمتقين [١] علي ابن ابي طالب وأولاده المعصومين المنتجبين عليهم افضل الصلاة والسلام، فهم نور واحد له تشؤنات ومظاهر متعددة، يرشد لذلك قوله صلى الله عليه وآله في الحديث المستفيض الذي رواه الفريقان «كنت أنا وعلي بن ابي طالب نوراً بين يدي الله عز وجل قبل ان يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق آدم قسم ذلك النور جزءين، فجزء أنا وجزء علي» [٢].

فعليه لاشريعة أكمل من الشريعة الخاتمة فلا نبوة تشريع بعده صلى الله عليه وآله، ولو كان لكان علي عليه السلام بمقتضى قوله صلى الله عليه وآله «أنك مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي» وقوله «ياعلي انك ترى ماأرى وتسمع مااسمع الا انك لست بنبي» وقوله «لولا اني خاتم الانبياء لكنت شريكا في النبوة» وقوله «لو كان بعدي نبي لكان علي» [٣].

قال الامام الخميني: إعلم ان هذه الاسفار قد تحصل

---

(١) ولذا قال ابن عربي: وأقرب الناس إليه (يعني الى الرسول صلى الله عليه واله) علي بن ابي طالب عليه السلام إمام العالم وسر الانبياء أجمعين.

(٢) احقاق الحق: ج٤/٩٢، ج٥/٢٥٣، ج١٦/١٠٦ـ ١١٠ ١١٢ ١١٤، ج٢١/٤٣٣، نقله عن مصادر عدة، وراجع خلاصة عبقات الانوار ج٥ نقلا عن العامة والخاصة.

(٣) راجع احقاق الحق: ج٤/١٧٥، ج١٥/١٤٣، ج٢٠/٣٠٩ـ ٣١١ـ ٣٨١ـ ٤٥٧.

للأولياء الكمّل أيضا ، حتى السفر الرابع ، فـانه حـصل لمـولانا أمـير المـؤمنين وأولاده المـعصومين صـلوات اللـه عـليهم أجمعين إلا أن النبي صلى الله عليه وآله لمّا كان صـاحب المـقام الجـمعي لم يبق مجال للتشريع لاحد من المخلوقين بعده ، فـلرسول اللـه صلى الله عليه وآله هذا المقام بالاصالة ولخلفائه المعصومين عليهم السـلام بالمتابعة والتبعية ، بل روحانية الكل واحدة .

قال : قال شيخنا وأسـتاذنا فـي المـعارف الالهـية العـارف الكامل الشاه آبادي أدام لله ظله على رؤوس مـريديه : لو كـان علي عليه السلام ظـهر قـبل رسـول اللـه صلى الله عليه وآله ، لاظـهر الشـريعة كـما أظهر النبي صلى الله عليه وآله ، ولكان نـبيا مـرسلا ، وذلك لاتـحادهما فـي الروحانية والمقامات المعنوية والظاهرية [١] انتهى.

قلت : وما افـاده عـن اسـتاذه قـدس سـرهما هـو مـقتضى الاحاديث الانفة الذكر فـلا غـلو ولامـبالغة ، وليس فـي البـين تفضيل لابن ابي طالب عليه السلام على الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله ، بل هـو عليه السلام صرح في بعض كلماته أنه «عبد من عبيد مـحمد» ، رزقـنا الله مقام العبودية للنبي الخاتم صلى الله عليه وآله .

فعن عبدالله بـن عـجلان عـن ابـي جـعفر عليه السلام فـي قـوله ﴿ وأطيعوا الله وأطـيعوا الرسـول وأولي الامـر مـنكم ﴾ قـال : هي في علي والائمة ، جعلهم الله مـواضـع الانـبياء غير أنـهم

---

(١) مصباح الهداية : ٩٥.

لا يحلون شيئاً ولا يحرمونه [١] .

أفضلية الائمة على سائر الانبياء

ونفي النبوة والرسالة عنهم عليهم السلام لا يعني أفضلية غير الخاتم عليهم.

توضيح ذلك : أن النبوة والرسالة مناصب إلهية ، لاتعطى إلا لمن وصل الى درجة من الكمال والشدة الوجودية ، وتسمى هذه الدرجة والمنزلة والوجودية عند العرافاء بـ «الولاية» ، فمنشأ وسبب النبوة والرسالة هو وصول الانسان الى مرتبة الولاية الالهية ، وهذه الولاية تختلف من نبي الى اخر ومن رسول الى اخر ، فهي ليست بمستوى واحد وانما ذات مراتب تشكيكية متعددة ، فكون الانسان نبياً او رسولاً كاشفاً عن تلك المرتبة من الولاية ، فالنبوة مترتبة على الولاية ، والرسالة مترتبة على النبوة ، فلا يكون الانسان نبياً الا اذا كان ولياً ، ولايكون رسولا الا اذا كان نبياً ، فأولا الولاية ثم النبوة وبعدها الرسالة .

فكون الانسان نبياً أو رسولا ليست قضية اعتبارية ، بمعنى أن النبوة والرسالة قابلة للاعطاء لكل الناس ، كما قد يُتوهم ذلك تمسكاً بقوله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم ﴾ من كون النبي أو الرسول لايختلف عن بني البشر مطلقا الا في

(١) البحار : ٢٣/٢٩٣ .

هذا التخصيص الالهي ، ليست القضية كذلك بل هذان المنصبان لا يعطيان إلا لمن وصل الى مرتبة من الشدة الوجودية والكمال البشري ، فالمنشأ هذه الدرجة الوجودية والنبوة والرسالة منصبان متفرعان عليها ، وقد تعطيان لمن وصل الى هذه المرتبة وقد لاتعطيان لا لعدم القابلية والاهلية وانما لعدم الحاجة .

ومثال ذلك في الفقه منصب القضاء ، فإن القاضي لايشرَّف ولا يعطى هذا المنصب الا من بعد اتصافه بجملة من الصفات الوجودية التي هي منشأ أهليته لهذا المنصب ، وعلى رأس هذه الصفات العدالة والاجتهاد ، ومع فقد احدى هاتين الصفتين يستلزم عدم قابلية الانسان لان يكون قاضياً ، وكالقضاء الشهادة عند القاضي وغيره .

فكما أن منصب القضاء كاشف عن تلك الصفات الوجودية السابقة على منصب القضاء لدى القاضي ، كذلك النبوة والرسالة منصبان يكشفان عن اتصاف النبي والرسول بجملة من الصفات الوجودية الكمالية التي هي منشأ النبوة والرسالة ، وهذه الدرجة يعبر عنها في كلمات أهل الفن ـ كما قلنا ـ بمرتبة الولاية .

وعليه تكون مرتبة الولاية أشرف من منصب النبوة والرسالة ، اذ باطن النبوة والرسالة والامامة متقوم بالولاية

ووصول الانسان الى مرتبة الولي والقرب الالهي ، وهو الفناء بمراتبه الثلاثة المتقدمة .

وهذه لايعني أن كل من وصل الى مرتبة الولاية فهو كالانبياء والرسل والائمة ، بل الولاية كما أشرنا اليه آنفا ذات درجات تشكيكية متعددة ومختلفة ، وقد يكون الفرق بين درجة واخرى بما لايتناهي فوق مالايتناهى مدة وعدة ، ومنشأ هذا الاختلاف هو السفر الثاني على ماتقدم ذكره فراجع .

اذا عرفت ذلك نقول : كون الائمة عليهم افضل الصلاة والسلام ليسوا بانبياء ورسل لايلزم منه افضلية الانبياء والرسل ـ ماعدا الخاتم ـ عليهم ، إذ منشأ عدم كونهم كذلك لمكان الخاتمية للنبي الامي صلى الله عليه وآله فانه وصل الى قاب قوسين أو ادني من ذلك ، فلا يمكن أن يتصور ماهو أكمل وأعلى منه فضلا عن الوقوع والتحقق ، وعليه فتكون شريعته حاكمة ومهيمنة وهذا معنى ختم الرسالة ، وقد تقدم كلام للامام الخميني واستاذه الشاه آبادي «قدس سرهما» في أن علياً عليه السلام لو بعث قبل النبي لكان نبياً مرسلا فراجع [1] .

---

(١) نعم خاتمية التأويل والتطبيق تكون بالحجة المهدي عليه السلام كما هو مقتضى قوله ـ المستفيض ـ « إن منكم من يقاتل على تأويل القران كما

وعليه : فمنشأ عدم كونهم انبياء ورسل هو المقام الجمعي للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله اذ لا يمكن ان يتصور ماهو اكمل واوسع وادق واعلى من شريعته ، فمن يأتي بعده من الائمة والاولياء مهما تقدموا وساروا فلن يبلغوا شأوه صلى الله عليه وآله ، فيكونون عبيداً وخاضعين لشريعته ومنهاجه .

وقد ورث أهل البيت عليهم السلام تلك الكمالات الوجودية للنبي الخاتم صلى الله عليه وآله ، والاحاديث في ذلك مستفيضة بل متواترة معناً فضلا عن التواتر الاجمالي ، وقد أشرنا الى بعضها فيما تقدم وأنهم ببركة جدهم الخاتم صلى الله عليه وآله عندهم من الاسم الاعظم اثنين وسبعين حرفا فلا يقاس بأهل البيت احد مطلقا لا من هذه الامة ولا من غيرها ، فهم خزنة علم الله ووجه الله ويد الله واسمائه الحسنى وكلمات الله التامة ... والتفصيل في محله .

قاتلت على تنزيله ، قيل من هو يارسول الله قال : انه خاصف النعل ، وكان علي عليه السلام يخصف نعل النبي صلى الله عليه واله» .

قال الحجة العارف السيد حسين الهمداني الدرودبادي في كتابه الشمس الطالعة صفحة ٤٦٨ في شرح الزيارة الجامعة في قوله «بكم بدأ الله وبكم يختم» : ان حقيقة النبوة بما هي لايمكن ظهورها وإنما ظهورها بأحد مراتبها الاثني عشر وان في كل نفس بل في كل موجود آية منها هي مبدء تمام مراتبها الى مالانهاية له ، وبتلك الاية يختم ايضا وليس شيء غيرها وكل مانزلت إليها من المراتب والشئون فانها هي مرتبة من مراتبها وشأنا من شئونها وهي سر آل محمد صلى الله عليه واله فبسرهم افتتاح كل شيء واختتامه ، «راضي» .

مضافا الى ان النبوة والرسالة منصبان كاشفان عن درجة الولاية للنبي والرسول ـ كما تقدم مرار ـ وعدم اعطائه لزيد من الناس لايخلو إما لعدم وصوله الى مرتبة الولاية وهذا واضح، وإما لعدم الحاجة لاحداث وتعيين هذا المنصب، وهو منشأ عدم كون أهل البيت عليهم افضل الصلاة والسلام انبياء ورسل، وهذا لايعني انهم عليهم السلام لم يصلوا الى ماوصل اليه الانبياء والرسل، إذ لاتلازم بين عدم الحاجة وعدم الوصول الى اعلى مقامات ودرجات الولاية.

فكما أن عدم الحاجة الى القضاء لايعني عدم اتصاف الانسان بالعدالة والاجتهاد، اذ قد يكون الانسان مجتهدا وله قابلية منحه هذا المنصب ولكن لعدم الحاجة الى منصب القضاء او لوجود كثرة في القضاة لم يعط هذا الانسان هذا المنصب، مع أنه قد يكون أعلم وأفقه من جميع من لهم هذا المنصب، كذلك أهل البيت لم يكونوا انبياء ورسل لعدم الحاجة لاغير، لكن مرتبتهم في درجات الولاية الالهية لم يسبقه سابق ولن يلحقه لاحق.

وهذا الامر أيضا يجري في الزهراء سلام الله عليها فانها وان لم يكن لها منصب من المناصب المزبورة لكن مرتبتها في الولاية الالهية كما هو صريح جملة من الروايات تفوق جميع الانبياء والمرسلين والاولياء والائمة ماعدا ابيها صلى الله عليه وآله وبعلها

عـليه افـضل الصـلاة والسـلام ، فـنفي مـقام النـبوة والرسـالة والامامة لا يستلزم نفي مقام الولاية ، وأن من أتصف بذلك هو أفـضل مـمن لم يـتصف مـطلقا ، إذ ليس مـحور وضـابطة التفاضل كون الانسان نبياً او رسولاً او إماماً ، وإنما المحور هو باطن ذلك وهو الولاية الالهية ، فقد لا يـتصف الانسـان بـتلك المناصب ومع ذلك يفوق الانـبياء والرسـل والائـمة كـما هـو الشأن في الزهـراء عـليها افـضل الصـلاة والسـلام ، ومـن هـنا نعرف أن ولاية الرسول الخاتم ﷺ أشرف من نبوته ورسالته عند المقايسة ، وهذا لا يعني ان ولاية غيره أشـرف مـن نـبوته ورسـالته فـانتبه ، فـالمناصب الثـلاثة لا تـدل عـلى الافـضلية مطلقا، ولذا قد يكون هـناك خـتم للـنبوة والرسـالة والامـامة ، لكن باب الولاية مفتوح الى قيام يوم الدين ، وكل انسان يغرف من تلك الولاية بحسب وجوده وشدته .

قال سلطان العارفين السيد حيدر الاملي :

والاسفار أربعة عندهم :

الاول : هـو السـير الى اللـه فـي مـنازل النـفس الى الافـق المبين ، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ الاسمائية .

الثاني : هو السـير فـي اللـه بـالاتصاف بـصفاته والتـحقق باسمائه الى الافق الاعلى وهو نهاية الحضرة الواحدية .

الثالث : وهو الترقي الى عين الجـمع والحـضرة الاحـدية

وهو مقام «قاب قوسين» مابقيت الاثنينية ، فاذا ارتفعت فهو مقام «أو ادنى» وهو نهاية الولاية .

الرابع : هو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع .

ولكل واحدة من هذه الاسفار نهاية كما كان لها بداية .

فنهاية السفر الاول هو رفع الكثرة عن وجه الوحدة ، ونهاية السفر الثاني هو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة ، ونهاية السفر الثالث هو زوال التقييد بالضدين : الظاهر والباطن ، بالحصول في احدية عين الجمع ، ونهاية السفر الرابع عند الرجوع عن الحق الى الخلق في مقام الاستقامة ، الذي هو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق في الخلق واضمحلال الخلق في الحق ، حتى يرى العين الواحدة في صور الكثرة في عين الوحدة [١] .

قال العارف الكاشاني :

السفر هو توجه القلب الى الحق ، والاسفار أربعة :

الاول : هو السير الى الله من منازل النفس الى الوصول الى الافق المبين ، وهو نهاية مقام القلب ومبدء التجليات الاسمائية .

الثاني : هوالسير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق

(١) ختم الاولياء : ٥٠٣ .

بأسمائه الى الافق الاعلى وهو نهاية الحضرة الواحدية .

الثالث : هو الترقي الى عين الجمع والحضرة الاحدية ، وهو مقام قاب قوسين مابقيت الإثنينية فاذا ارتفعت فهو مقام أو ادنى ، وهو نهاية الولاية .

السفر الرابع : هو السير بالله عن الله للتكميل ، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع [1] .

قال الجرجاني :

السفر لغة قطع المسافة ، وشرعاً هو الخروج على قصد مسيرة ثلاثة أيام ولياليها ... ، وعند أهل الحقيقة عبارة عن سير القلب عند أخذه في التوجه الى الحق بالذكر ، والاسفار أربعة :

السفر الاول : وهو رفع حجب الكثرة عن وجه الوحدة وهو السير الى الله من منازل النفس ، بازالة التعشق من المظاهر والاغيار الى ان يصل العبد الى الافق المبين وهو نهاية مقام القلب .

السفر الثاني : وهو رفع حجاب الوحدة عن وجوه الكثرة العلمية الباطنية ، وهو السير في الله بالاتصاف بصفاته والتحقق باسمائه ، وهو السير في الحق بالحق الى الافق

---

(١) اصطلاحات الصوفيه : ١٠٣ ، وبيانه للاسفار خلاف ماهو المشهور بينهم .

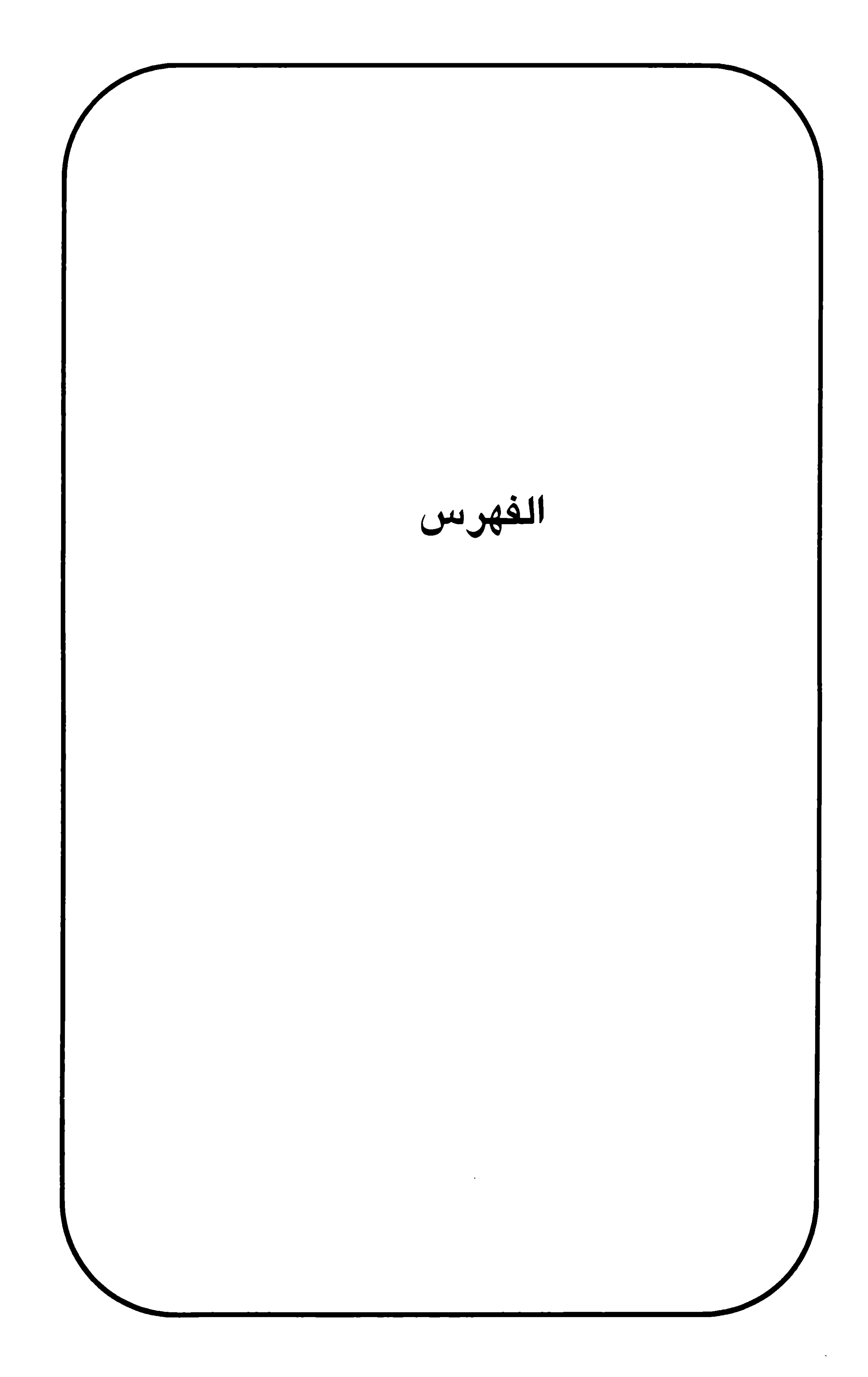
الاعلى وهو نهاية حضرة الواحدية .

السفر الثالث : وهو زوال التقيد بالضدين الظاهر والباطن ، بالحصول في أحدية عين الجمع وهو الترقى الى عين الجمع والحضرة الاحدية وهو مقام قاب قوسين مابقيت الاثنينية ، فإذا ارتفعت وهو مقام أو ادنى وهو نهاية الولاية .

السفر الرابع : عند الرجوع عن الحق الى الخلق وهو أحدية الجمع والفرق بشهود اندراج الحق في الخلق واضمحلال الخلق فى الحق حتى يرى العين الواحدة في صورة الكثرة ، وصورة الكثرة في عين الوحدة ، وهو السير بالله عن الله للتكميل وهومقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع [1] .

---

(١) التعريفات : ١٣٤ .



الفهرس

الفهرس